الحوار بين أتباع الأديان

رؤى عالمية

إعداد

مجموعة من المؤلفين

مركز الفكر العالمي عن السعودية
Center for Global Thought on Saudi Arabia

© دار غيناء للنشر، ١٤٣١هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر.
مجموعة من المؤلفين
الحوار بين أتباع الأديان/ مجموعة من المؤلفين-الرياض ١٤٣١هـ.
٢٢٥ص، ٨٥, ١٤سم × ٢١سم
ردمك: ٥-٣-٩٠٠٩٥-٦٠٣-٩٧٨
١- الحوار بين الأديان ٢- الإسلام والديانات الاخرى أ. العنوان
ديوي ٢١٤, ٢٧ ١٤٣١/١٠٧٧هـ
رقم الإيداع: ١٤٣١/١٠٧٧هـ
ردمك: ٥-٣-٩٠٠٩٥-٦٠٣-٩٧٨

حقوق النشر محفوظة

مركز الفكر العالمي عن السعودية
Center for Global Thought on Saudi Arabia

الطبعة الأولى

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

المحتويات

المقدمة ٧

الحوار بين أتباع الأديان ..من مكة إلى نيويورك ٨
أ.د. عبد الله بن عبد المحسن التركي

الإسلام والحوار مع الآخر ٢١

رؤية الإسلام للحوار مع الآخر ٢٢
د. صالح بن عبدالله بن حميد

الحوار والعلاقة بين أتباع الأديان ٤٧

الحوار والتعايش بين أتباع الديانات والثقافات ٤٨
أ.د. عز الدين إبراهيم

العلاقات الإسلامية النصرانية اليهودية في ضوء المبادرة السعودية للحوار ٧٤
د. إدوارد كيسلر

الحوار بين أتباع الأديان في الدنمارك ٩٢
عبدالواحد بيدرسين

المعرفة بالإسلام وتعزيز الحوار بين أتباع الأديان في اليابان ١٠٤
د. كينتا كاساي

المشكلات التي يمكن أن تحل بالحوار ١١٩

من مشكلات الحوار بين أتباع الأديان:
نقص المعرفة عن الآخرين ١٢٠
د. جون حبيب

إشكالية التفريق بين الإسلام والمسلمين ١٥٢
د. محمد السماك

الاستغلال السياسي: سياسة الخوف ١٧٦
وليام بيكر

الحوار والاستغلال السياسي ١٩٤
د. جف جيتس

الخاتمة ٢١٨
أ.د. محمد بن سعود البشر

المقدمة

الحوار بين أتباع الأديان ..من مكة إلى نيويورك

أ.د. عبد الله بن عبد المحسن التركي *

الحمد لله، والصلاة والسلام على محمد رسول الله، وعلى جميع أنبيائه المبعوثين رحمة للعالمين، أما بعد:

فيسعدني في مستهل هذه الكلمة، أن أشكر لدار غيناء للدراسات والإعلام، ولأخي الأستاذ الدكتور محمد بن سعود البشر هذا الجهد الذي يناقش موضوع الحوار بين أتباع الأديان والحضارات.

لقد سبقت هذه الدار إلى استكتاب كوكبة من كبار العلماء والباحثين من مختلف أنحاء العالم، الذين أثروا المكتبة الإنسانية بإنتاجهم المهم في تطوير الحوار الحضاري، ووضعوا بين أيدي

* الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي، وعضو هيئة كبار العلماء. عمل مديراً لجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في الرياض، ثم وزيراً للشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، ثم مستشاراً في الديوان الملكي. يرأس عدداً من المجالس العلمية والإسلامية في العالم الإسلامي، وشارك في عدد كبير من المؤتمرات الإسلامية حول العالم. (**السعودية**).

قرائهم ثلة من الحقائق المهمة التي تزداد الحاجة إليها في عالم أثقلته الآلام والنزاعات، وقد أكدوا على أن هذه النزاعات وتلك الصراعات لم تكن ناشئة من رسالات الله الحقة، ولم تكن ثقافية البواعث، وإن تلبست دوافعها الاستعمارية بلبوس الدين أو الثقافة؛ بغية تحقيق قدر أكبر من المصالح الاستعمارية والنزاعات الأنانية التي يدفع إليها الشعور العنصري بالتفوق والاستعلاء العرقي.

هذه النزعة البغيضة أنتجت – كما رأى الباحثون – نظرية صراع الحضارات التي أعطت للحملات الاستعمارية بعداً ثقافياً، وجعلت منه حقيقة حتمية تهدد مستقبل البشرية بالمزيد من الكوارث والنكبات والآلام، وتزرع المزيد من بذور الشقاق والكراهية بين أطياف المجتمع الإنساني، وهو ما أوجب على العقلاء مواجهة الصراع بالحوار، والاستعلاء بالتعايش، والتمييز بالاحترام المتبادل.

فجاءت الدعوات إلى الحوار من قلب العالم الإسلامي، لتعبر عن رغبة صادقة من المسلمين بهذا النهج الذي رأوه خياراً استراتيجياً للتعامل مع العالم، وللتخفيف من الأزمات والتغلب على الخلافات التي تعصف بحاضرنا، والتركيز على التعاون الإيجابي في المشتركات، وإعطاء الفرصة للتعرف على الآخر

وثقافته من خلال تراثه وإبداعه؛ بعيداً عن الأحكام المسبقة المثقلة بتراكمات مؤلمة، لا يحسن المراوحة عندها.

وقد نبه عدد من الباحثين في مقالاتهم الثرية إلى براءة الإسلام من ظاهرة الإرهاب الذي لا ينتمي إلى لون أو عقيدة، وعـدُّوه نتاجاً لممارسات خاطئة وانعكاساً لظلال كئيبة من النزاعات والممارسات السياسية الدولية التي تركت جروحاً غائرة في ذهنية الأجيال ومخيلتها التي لم تفرق بين الدين والتوظيف السياسي له في اللعبة الدولية، التي أثَّر الإعلام فيها سلباً بإشاعة الصور النمطية التي رسخت سوء الفهم والاحتقان والتشنج الاجتماعي.

إن الإسلام المستعلي على دعوات الصراع أرسى منهجاً حوارياً واضح المعالم والأهداف، ذكَّرنا بعض المشاركين ببعض معالمه وآدابه، فهو رسالة الله ورحمته للعالمين، والمسلمون كانوا من أسبق الأمم إلى الحوار وأكثرها تعاوناً مع المكونات الثقافية الأخـرى، ولا ريب أن حركة الترجمة وتجربة التعايش كانتا من أبرز مظاهر هذا الانفتاح على الآخرين، الذي لم يؤدِّ إلى الاستلاب الحضاري، كما لم يعن أبداً فقدان الخصوصية أو التماهي مع الآخر.

وأطلعنا الباحثون على خلاصة مهمة لتجاربهم في الحوار،

وكشفوا عن وعي وبصيرة بطبيعة المشكلات التي تعوق الحوار، وخبرة عالية في التراكمات التاريخية وفهم للوقائع المعاصرة التي تستدعي مواقف جريئة وصريحة تؤكد على القيم الإنسانية النبيلة.

إن مؤتمر مكة العالمي للحوار الذي نظمته رابطة العالم الإسلامي؛ بتوجيه من خادم الحرمين الشريفين الملك عبد الله ابن عبد العزيز آل سعود حفظه الله ورعاه لم يكن نقطة البدء في مسيرة الحوار، لكنه كان محطة بارزة في هذه المسيرة التي انطلقت في أربعينيات القرن الهجري المنصرم، مسجلةً القليل من النجاحات التي لم تستطع أن تجعل الحوار في مساره المأمول عند عقلاء العالم، الذين أمَّلوا أن يكون الحوار بين مختلف الأمم من أقوى الأسباب لفض النزاعات المتفاقمة في العالم، ومسهماً في مواجهة التحديات الأخلاقية والاجتماعية، التي تنذر بمستقبل كئيب للأسرة والمجتمع الإنساني.

فقد شهد العالم تراجعاً كبيراً في القيم، وكان النتاج خطأ جسيماً؛ ليس أوله ما تعانيه المجتمعات الإنسانية اليوم من انحلال أخلاقي وتفكك اجتماعي؛ وليس آخره ملايين القتلى الذين أُفنوا في حروب عالمية ضارية، عدا من قُضي عليهم في الصراعات والنزاعات الإقليمية والمحلية الأخرى.

إن نظرة فاحصة إلى هذا التاريخ القريب، تكفي لاستشعار العقلاء فداحة الخطر، وليشمر الرواد منهم ويسعوا في درء المخاطر وإنقاذ البشرية من أتون هذه التحديات؛ سعياً للوصول إلى مستقبل أفضل.

إننا نستشعر في هذا القرن اهتمام بعض القيادات العالمية بالجهود الدينية وأثرها في تسديد مسار الحياة السياسية والاجتماعية والأخلاقية، في كثير من الشعوب بعد تراجع المعتقدات التي كان لها كبير التأثير في القرن الماضي، وهذا أمر قد يتخوف البعض منه، فيرونه باعثاً للمزيد من الصراع والشقاق، وبخاصة أن المتطرفين هنا وهناك يزرعون نذر الشر بدعوتهم إلى صراع الحضارات، فيما يسمى نهاية التاريخ.

لكن المتأمل فيما لدى أتباع الأديان من قيم ومُثُل، يلحظ أنها تملك قدراً مشتركاً من القيم النبيلة، والرؤى المشتركة التي يمكن التعاون من خلالها، في مواجهة التحديات العالمية التي يجمع معظم عقلاء العالم على خطورتها، وضرورة التصدي لها في عالم أضحى كالقرية الصغيرة يتأثر كله بما يموج في جوانبه.

ونحن اليوم مدعوون لاستثمار هذا المشترك الإنساني، في صياغة برامج علمية تجسد تقارب الرؤى، وتوافق وجهات النظر إزاء كثير مما يواجهنا من تحديات ومشكلات، إذ الحوار

ليس هدفنا بذاته، ولكنه – بلا شك – الوسيلة الأمثل لتجسير العلاقات بين الأمم، وردم الهوة الحاجزة بينهم، وإزاحة العوالق الحائلة دون تفاهمهم وتعاونهم، لتجاوز الصور النمطية التي كانت السبب في كثير من الإشكالات والصراعات التاريخية.

وقد أدرك خادم الحرمين الشريفين الملك عبد الله بن عبد العزيز آل سعود حفظه الله هذه الحقائق، فدعا بمبادرته الرائدة إلى فتح صفحة جديدة يتعاون فيها الجميع لمصلحة الإنسانية جمعاء.

وحرصاً منه حفظه الله على التأصيل الشرعي لهذه الخطوة الكبيرة؛ دعا كوكبة من علماء المسلمين للتباحث في الحوار عبر مؤتمر إسلامي عالمي نظمته رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة في يونيو ٢٠٠٨ حول فكرة الحوار بين أتباع الأديان والثقافات، ووضع أهدافه وآفاقه وسبل تطويره، ودراسة العوائق التي تعرقل مسيرته وتحول دون تحقيقه للنتائج المأمولة منه

وأشار خادم الحرمين الشريفين في افتتاح هذا المؤتمر، إلى الدور الرائد الذي يرقبه العالم من الأمة المسلمة التي تملك رصيداً حضارياً كبيراً، وإرثا عريقاً يؤهلها للحوار مع بقية أمم العالم، وتقديم الحلول الناجعة للأزمات المعاصرة، وإظهار ما يدعو إليه الإسلام من سماحة وعدل وتعايش وخير للإنسانية جمعاء.

وأكد حفظه الله على أهمية الحوار، وأنه البديل الأمثل الذي تتقدم به الأمة المسلمة في مواجهة تداعيات الغلو والتطرف، وتعميق التفاهم والتعايش مع أتباع الأديان والحضارات المختلفة:

«إننا صوت عدل، وقيم إنسانية وأخلاقية، وإننا صوت تعايش وحوار عاقل وعادل، وصوت حكمة وموعظة وجدال بالتي هي أحسن؛ تلبية لقول الله تعالى ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (النحل: ١٢٥).

وقدم مؤتمر مكة للحوار المنعقد في جنبات البيت الحرام، إلى العالم تصوراً إسلامياً واضحاً لطبيعة الحوار وآلياته وأُسسه وأهدافه، وتجاوز إخفاقات التجارب السابقة، حين دعا إلى توسيع نطاق الحوار ليشمل أتباع الفلسفات الوضعية، والمناهج الفكرية المعتبرة؛ تحقيقاً لعموم رسالة خاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام وعالميتها.

وأكد على الانفتاح في الحوار على مختلف الاتجاهات المؤثرة في الحياة المعاصرة، سياسية وبحثية وأكاديمية وإعلامية وغيرها، وعدم الاقتصار على القيادات الدينية، مطالبا بشمول الحوار للجهات ذات المواقف المسيئة للإسلام؛ وذلك من أجل بيان حقائقه وتصحيح المفاهيم الخاطئة والمغلوطة عنه.

ولتأكيد جدية المسلمين ووحدة موقفهم وتصوراتهم في مسائل الحـوار، أوصى المشاركون في المؤتمر رابطة العالم الإسلامي بتكوين هيئة إسلامية عالمية للحوار لوضع استراتيجية موحدة له ومتابعة شؤونه وتنشيطه، والتنسيق والتعاون في ذلك مع مختلف الجهات المعنية.

كما دعم المؤتمر مسيرة الحـوار بدعوته إلى إنشاء مركز خاص بهذا الشأن، أطلق عليه اسم «مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز الدولي للتواصل بين الحضارات» اعترافاً بفضل هذه الشخصية التي أصبحت رمزاً عالمياً للدعوة إلى السلام والحـوار. ويهدف المركز إلى إشاعة ثقافة الحـوار، وتدريب مهاراته وتنميتها وفق أسس علمية دقيقة.

كما أوصى بإقامة «جائزة الملك عبدالله بن عبدالعزيز العالمية للحوار الحضاري»، ومنحها للشخصيات والهيئات العالمية التي تسهم في تطوير الحوار وتحقيق أهدافه.

وتوجه المشاركون في المؤتمر إلى خادم الحرمين الشريفين حفظه الله، مؤملين دعوته الكريمة لشخصيات متميزة ومتخصصة في الحـوار، من المسلمين وسائر أتباع الرسالات الإلهية، والفلسفات الوضعية المعتبرة، للمشاركة في مؤتمر عالمي، تعرض فيه الرؤية الإسلامية للحوار التي صدرت عن

مؤتمر مكة، والاتفاق على صيغة عملية لحوار عالمي مثمر، يسهم في حل المشكلات التي تعاني منها البشرية اليوم. كما ناشدوه أن يبذل مساعيه عبر الأمم المتحدة ودول العالم ومنظماته، ليكون مشروع الحوار عالمياً ومثمراً.

وقد تحقق ذلك، حيث دعا خادم الحرمين الشريفين أتباع الحضارات والأديان، إلى المؤتمر العالمي للحوار الذي نظمته الرابطة في مدريد في يوليو ٢٠٠٨، بحضور ممثلي أربع وخمسين دولة، وأثنى المشاركون فيه على مبادرة خادم الحرمين للحوار الذي أضحى من ضروريات الحياة ومن أهم وسائل التعارف والتعاون، وتبادل المنافع، والوصول إلى الحق والعدل الذي يسهم في سعادة الإنسان.

وأكدوا اتفاقهم على مبادئه التي تقوم على أساس وحدة أصل البشرية، وتساوي الناس في الكرامة الإنسانية على اختلاف ألوانهم وأعراقهم وثقافاتهم، داعين إلى احترام كرامة الإنسان والاهتمام بحقوقه، والمحافظة على الاستقرار والسلام، والوفاء بالعهود، واحترام خصوصيات الشعوب الثقافية، وحقها في الأمن والحرية وتقرير المصير، وغيرها من الأسس المهمة لبناء العلاقات الجيدة بين مختلف الشعوب، منوهين على أن مختلف الأديان والثقافات المعتبرة، تؤكد على أهمية رجوع البشر إلى

خالقهم جل جلاله، وطاعته، وعبادته حق العبادة، والعمل على مكافحة الجرائم والفساد والمخدرات والإرهاب، وحماية الأسرة باعتبارها أساساً لحماية المجتمعات من الانحرافات الأخلاقية، والحفاظ على سلامة البيئة وحمايتها من التلوث والأخطار التي تهددها.

ورد المشاركون في المؤتمر على القول بحتمية الصراع بين الحضارات والثقافات، وحذروا من خطورة الحملات التي تسعى إلى تعميق الخلاف وتقويض أسس السلم والتعايش، ودعوا إلى تعزيز القيم الإنسانية المشتركة، والتعاون على نشرها في المجتمعات، ومعالجة المشكلات التي تحول دون ذلك، بنشر ثقافة التسامح، وبالتفاهم من خلال الحوار ليكون إطاراً للعلاقات الدولية.

وقرر المؤتمر تكوين فريق عمل لدراسة المشكلات التي تعيق الحوار، ووضع رؤى لحل هذه المعوقات، ودعا إلى التعاون بين المؤسسات الدينية والثقافية والتربوية والإعلامية في ترسيخ القيم النبيلة، وتشجيع الممارسات الاجتماعية السامية، والتصدي للإباحية والانحلال وتفكك الأسرة، وغير ذلك من الرذائل المختلفة.

ودعا المشاركون الجمعية العامة للأمم المتحدة، إلى تأييد النتائج التي توصلوا إليها والاستفادة منها، في تعزيز الحوار

بين أتباع الأديان والحضارات والثقافات، من خلال تخصيص جلسة لهذا الموضوع ضمن دورتها الاعتيادية.

ومـن هنا انتقلت مـبـادرة خـادم الحـرمـين الشريفين إلى الجمعية العامة للأمم المتحدة، ليعلن حفظه الله أمام زعماء العالم أن «الأديان التي أراد بها الله عز وجل إسعاد البشر، لا ينبغي أن تكون من أسباب شقائهم، وأن الإنسان نظير الإنسان وشريكه على هذا الكوكب، فإما أن يعيشا معاً في سلام وصفاء، أو أن ينتهيا بنيران سوء الفهم والحقد والكراهية».

وأكد خادم الحرمين الشريفين في كلمته على أن التركيز عبر التاريخ على نقاط الخلاف بين أتباع الأديان والثقافات قاد إلى التعصب والحروب المدمرة التي سببها أيضا تنكر العالم لمبدأ العدالة وغياب التسامح فيه، وأعلن أنه «آن الأوان لأن نتعلم من دروس الماضي القاسية، وأن نجتمع على الأخلاق والمثل العليا التي نؤمن بها جميعا»، وبهذا انتقلت المبادرة إلى رحاب العالمية، وتوالت على منبر الأمم المتحدة كلمات ممثلي الدول من الملوك والرؤساء، وكذا ممثلي الهيئات غير الحكومية تأييداً وتشجيعاً وثناءً على مبادرة خادم الحرمين الشريفين للحوار.

وقد وجه خـادم الحـرمـين الشريفين في خطابه في الأمم المتحدة، دعوة إلى تكوين لجنة من المشاركين في مؤتمر مدريد للحوار العالمي :

«واسمحوا لي أن أدعو المتحاورين في مدريد إلى اختيار لجنة منهم تتولى مسؤولية الحوار في الأيام والأعوام القادمة»

فرحبت الرابطة بهذه الدعوة الوجيهة، ودعت ما يربو على خمسين شخصية عالمية للاجتماع في فيينا في ١٣-٢٠٠٩/١/١٤م، لتضع المبادرة في المسار الذي رسمه خادم الحرمين الشريفين.

وفي ٣٠ سبتمبر ٢٠٠٩ شارك ما يربو على مائة شخصية من مفكري العالم والمهتمين بالأديان والحوار، في المؤتمر العالمي الذي عقدته الرابطة في جنيف بعنوان « مبادرة خادم الحرمين الشريفين للحوار وأثرها في إشاعة القيم الإنسانية» لتزداد الأصداء الإيجابية لهذه المبادرة التاريخية، ولتتضاعف المسؤولية التي نستشعرها في رابطة العالم الإسلامي، التي تشرفت بتنفيذ هذه المبادرة والسهر على تطويرها لتحقق الآمال والأهداف التي رسمها خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز، في خطابيه في مؤتمري مكة المكرمة ومدريد.

وإن المسلمين كافة، والمنصفين من غيرهم، ليشكرون خادم الحرمين الشريفين على جهوده العظيمة في هذا المجال، ويقفون جانبه، ويتطلعون إلى مزيد من البرامج التي تجعل هذه المبادرة من أقوى وسائل التأثير في التعاون والتفاهم فيما يخدم البشر كافة.

الإسلام والحوار مع الآخر

رؤية الإسلام للحوار مع الآخر

د. صالح بن عبدالله بن حميد*

الحمد لله الرحيم الرحمن، خلق الإنسان وعلمه البيان، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين نبينا محمد سيد ولد عدنان، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان.

أما بعد:

فإن اختلاف الناس وتنوعهم واختلاف مصادر التلقي في بيئتهم، وأصول تربيتهم، ينتج عنه الخلاف في أفكارهم وآرائهم، بل وعقائدهم، وإذا كان الأمر كذلك فلا بد من وسيلة وطريقة تجمع بين الأفكار، لتمحيصها والتمييز بين الطيب

* رئيس المجلس الأعلى للقضاء، وعضو هيئة كبار العلماء، وإمام وخطيب المسجد الحرام بمكة المكرمة. شغل منصب الرئيس العام لشؤون المسجد الحرام والمسجد النبوي، ثم رئيساً لمجلس الشورى. (**السعودية**) .

والخبيث والجيد والرديء. ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاء وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ﴾ (الرعد: ١٧).

والوسيلة المثلى هي الحوار والمجادلة بالتي هي أحسن، فمبدأ الحـوار من المبـادئ المهمة على مستوى الأفـراد والجماعات لبيان الحق أو تصحيح المسار أو دفع الشبهة أو غير ذلك، دون تجريح أو تعنيف، فهو طريق معالجة الأخطاء وتقويم الاعوجاج، والوصول إلـى الحـق المنشود على أيـدي الأكفـاء من العلماء وأهل الخبرة. وفي هذا يقدم القرآن الكريم كثيراً من المواقف الحوارية المتنوعة: مع الملائكة أو الأنبياء أو من دونهم، كما يبرز القرآن الكريم الحوار بين الأنبياء وأقوامهم في قصصه الحكيم، وهكذا فالحوار مطلب ديني حين يكون موضوعه دينياً كأحد أبواب الدعوة والتعريف بالحق، وهو أيضاً مطلب بشري تدعو إليه حاجة الناس وتنوعهم، فبالحوار تـزداد البشرية استقراراً وفهماً، ولا سيما مع تقارب العالم بفعل عوامل التقنية والاتصال الحديث.

وقد ورد الحوار وأساليبه كثيراً في القرآن الكريم، كما في الحوار المتعلق بمرتبة الإنسان بين المخلوقات، في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة: ٣٠)

وكما في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ ﴾ (المائدة:١١٦).

كما وردت حوارات كثيرة بين الرسل وأقوامهم، لتقرير أصول العقيدة وإبطال شبههم ومتعلقاتهم، إذ يقول النبي لقومه: ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ... ﴾ (المؤمنون: ٢٣)، ويَردُّ الأقوام: ﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ ﴾ (الأعراف:٦٦) ﴿ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ ﴾ (هود:٥٣) ﴿ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿ ٩ ﴾ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ (إبراهيم: ٩-١٠).

ووردت أساليب أخرى من حوار القرآن الكريم، كالذي حَاجَّ إبراهيم في ربه، ﴿ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ﴾ (البقرة:٢٥٨)، والذي قال: ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴿ ٢٤ ﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ﴾ (النازعات: ٢٤-٢٥)، والذي قال: ﴿ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾ (الكهف: ٣٤)، و﴿ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا ﴾ (المجادلة: ١)، وقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى ﴾ (البقرة:٢٦٠) ﴿ وَحَآجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ ﴾ (الأنعام:٨٠). وهي أساليب من الحوار كثيرة، يسوقها القرآن الكريم بما يبين ارتباط أسلوب الحوار برسالة الإسلام،

ومنهجيته في دعوة الآخرين إلى الحق وإقناعهم به، يسلكه الداعي المؤمن مع من يحاوره، فيراجعه الكلام بالحجة والجدال بالتي هي أحسن، ويدعو هذا المنهج إلى التزام ضوابطه وآدابه، وارتياد آفاق الحوار القرآني للانطلاق برسالته العالمية إلى الناس كافة، بشيراً ونذيراً وهُدىً ورحمةً للعالمين.

تحديد المصطلحات

المصطلح الأول: رؤية الإسلام: الرؤيا هنا مصدر من (رأى) القلبية لا البصرية، والمقصود بها الرؤية الفكرية والنظر ومن ثم العقيدة وما يتعلق بها وينبثق عنها مما يُستمدّ من القرآن والسنة النبوية أصولاً وتفصيلاً، في خصائصها المميزة لها في مصدريتها الربانية من جهة وخطابها الإنساني العام الشامل من جهة أخرى.

ومبدأ عالمية الرسالة هو الأساس الثابت الذي تقوم عليه علاقة المسلم مع أهل الأديان الأخرى، ومنه تنبع رؤية المسلم في التعامل مع غير المسلمين، على وجه العموم.

ويتقرر الحوار وسيلة من وسائل نشره للناس كافة، فهو منهج من مناهج الدعوة إلى الله تعالى.

ورسالة الإسلام ترى في تعددية الشرائع سنة من سنن الله، قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا منكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ إِلَى الله مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ (المائدة: ٤٨). ﴿وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ (هود: ١١٨ - ١١٩)، فهو قد خلقهم للتنوع والاختلاف، غير أنه سبحانه قد جعل على الحق دلائل وعلامات ولهذا قال سبحانه:

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللّهُ يَهْدِي مَن يَشَاء إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (البقرة: ٢١٣).

المصطلح الثاني: الحوار: مصدر حاور يحاور حواراً ومحاورة إذا رجع، فهو من المحاورة بمعنى المراجعة، والمُرادَّة في الكلام، ومنه التحاور، وفي التنزيل العزيز قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾ (المجادلة:١)، ومن معناه: حديث يجري بين شخصين أو أكثر[1].

١) المعجم الوسيط: ح و ر (ص ٢٠٥)

وهو في الاصطلاح: مناقشة بين طرفين، أو أطراف يُقصد بها تصحيح كلام، أو إظهار حجة، أو إثبات حق، أو دفع شبهة، أو رد الفاسد من القول والرأي.

وكثيراً ما يُذكر لفظ الحوار مقارناً بالجدل، كما في صدر سورة المجادلة في قوله سبحانه: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (المجادلة: ١)، ليعبر بهما الإنسان عما يرغب في توضيحه والإقناع به، ويشتركان في معنى مراجعة الكلام وتداوله بين طرفين أو أكثر، إلا أن الجدل يأخذ صفة الشدة بقصد الغلبة وإن لم يقنع.

وهاتان الكلمتان تجسدان في الإنسان شيئاً من طبيعته في اختلاف الآراء وتنوع الأفكار وأساليب تعبيره عنها، فكان الجدل القائم على الحوار المباشر أداة وعي مشتركة يضبطها الإسلام لتطارح الأفكار بخطاب يثير في الإنسان وعيه برسالته، ويحرر عقله بأسئلته، وتتحدد فيه اتجاهات الآراء اتفاقاً أو اختلافاً، ليستخلص منها ما يدل عليه الدليل.

المصطلح الثالث: الآخر: وهو أحد الشيئين، ويكونان من جنس واحد.

ومصطلح الآخـر، يـراد به الـطرف المقابل لـلأول، وليس مقصوراً على المخالف في الدين، بل إنه يفهم حسب السياق، فالمسلم يقابله غير المسلم، والذكر يقابله الأنثى، والوطني يقابله الأجنبي، وهكذا كل متقابلَيْن، وعليه فالآخر تنظم العلاقة معه بوجه ما، من أجل التعامل أو التعايش مع شركاء الحياة المرتبطين بقضاياها، فأصل العلاقة بين الناس تبادل المنافع والتعاون على البناء والتعمير، والحفاظ على إحقاق الحق ونشدان العدل بالتحاور والجدال وغيرهما من الطرق والأساليب والأدوات.

التفاتٌ مطلوب نحو الآخر:

إن المنهج الصحيح في الخطاب الإسلامي والقضايا الإسلامية يقتضي فهم الآخر والتعامل معه بمنطق الاعتزاز والثقة بالحق، دون تعارض مع مقررات الدين من الولاء والبراء، فالقناعة المسبقة لا تمنع الحوار، وهو لا يلغيها، وهناك فرق بين التعامل وتبادل المصالح وبين الاستلاب أو الانسلاخ، ووجود المشكلات في أي حوار لا يعني إلغاءه بقدر ما يتطلب دراسة مشكلاته؛ فاليهود والنصارى، وقد أثبت القرآن الكريم لهم صفات من يعبد غير

الله ويشرك به، إلا أن القرآن الذي أثبت هذه الصفات لأهل الكتاب وغيرهم من المشركين، هو ذاته القرآن الذي وضع لنا - نحن المسلمين - آداباً وقيماً للتعامل مع أهل الكتاب والتحاور والتعايش معهم.

وقد أدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم نصارى نجران مسجده ليحاورهم، كما جاء في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءنَا وَأَبْنَاءكُمْ﴾ (آل عمران: ٦١)، ولذلك لا تعارض بين خصائص الكفار والمشركين وبين قبول ما يصدر عنهم من أقوال وأفعال تتفق مع الإسلام وقيمه ومبادئه، والتعامل معهم على أساس ذلك، والمعيار في ذلك قوله تعالى: ﴿فَمَا اسْتَقَامُواْ لَكُمْ فَاسْتَقِيمُواْ لَهُمْ﴾ (التوبة: ٧). والتعاون معهم على عمارة الأرض، والرغبة في قبولهم دين الحق.

الحوار وتأصيله في الإسلام:

مقصود الحوار هو التفاعل مع الآخرين من كل الثقافات والحضارات مما ينعكس على الواقع وتصل آثاره إلى حياة الناس، وما يحقق التفاعل بين الثقافات والحضارات، المؤدي إلى التعارف الذي هو الأصل في تعامل الشعوب والأمم بعضها

مع بعض، فقد خُلقوا من نفس واحـدة، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ (الحـجـرات: ٢٩). أمـا مـا ينطلق مـن الإحسـاس بالتفوق العنصري، أو بالاستعلاء الحضاري، والهيمنة الثقافية فليس من الحوار المقصود في شيء.

ولن ترضى الأمة الإسلامية أن يكون تفاعلها الحواري غزواً، أو فرضاً بالإكراه في الدين أو الثقافة الإسلامية، أو ذوباناً في ثقافات الأمم.

والحوار بهذا المفهوم دعوة إلى التشاور للوصول إلى أهداف نافعة بعيداً عن الانفرادية والتنافر والاستغلال والعزلة.

رُوي عن حاتم الأصم – رحمه الله – قوله: «معي ثلاث خصال أظهر بها على خصمي. قالوا وما هي؟ قال: أفرح إذا أصاب خصمي، وأحزن إذا أخطأ ، وأحفظ نفسي لا تتجاهل عليه»، فبلغ ذلك الإمام أحمد – رحمه الله – فقال: «سبحان الله ما أعقله من رجل».

وتاريخ الإسلام ورجاله مليء بالحوارات بأنواعها، ومع كل فئات الناس وأصنافها، بضوابطها وآدابها.

مشروعية الحوار

إن أسلوب الحوار في القرآن الكريم، في أكثر من سياق بين أطرافه، يفيد أن الحوار غير مقصود لذاته، وإنما يستهدف الوصول بالناس إلى بيان الحق وإبرازه وتعميق الإيمان في النفوس، ورد الباطل وكشفه وتحذيرهم منه، انطلاقاً من التقدير لمنزلة العقل ورفض التقليد الأعمى، وهذا الاعتبار أساس من أسس توجيه الحوار.

كما يُبرز الحوار عدة مفاهيم أشار إليها القرآن الكريم وأشارت إليها مواقف السنة النبوية، منها:

أولاً: الاختلاف بين الناس سنة من السنن، وهو أمر واقع مشاهد بينهم، فهم مختلفون في ألسنتهم وألوانهم وطباعهم ومدركاتهم ومعارفهم وعقولهم، وهذا الاختلاف الظاهري الذي نوه به خالقهم دالٌّ - أيضاً - على اختلافهم في الآراء والاتجاهات والأغراض، وهو سنة الله فيهم وآيته التي نبه إلى حكمته فيها بقوله تعالى: ﴿ **وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ** ﴾ (هود: ١١٨ - ١١٩).

يقول الرازي في تفسير هذه الآية: «والمراد اختلاف الناس في الأديان والأخلاق والأفعال». ومع وجود هذا الاختلاف إلا أن للحق معالمه لمن يطلبه بوسائله التي يعلمها جميع العقلاء. ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاء إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (سورة البقرة: ٢١٣).

ثانياً: تقديم صورة من الأساليب العملية التي مارسها الأنبياء والرسل أثناء دعوتهم الناس إلى ربهم في نص كريم لم يقصد مجرد النقل التاريخي، بل هي مواقف رائدة لقدوات عملية يتلمسها الإنسان كأفضل أساليب الحوار عند الاختلاف.

ثالثاً: المبادرة بالحوار نحو الآخر مفيد لطرح الفكرة وإيضاحها والدفاع عنها، ومبدأ عالمية الرسالة المحمدية هو الأساس الثابت الذي تقوم عليه علاقة المسلم مع أهل الأديان السماوية، ومنه تنبع الرؤية إلى التعامل مع غير المسلمين كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى﴾ (سبأ: ٤٦)، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ (آل عمران: ٦٤) كما أن من حق نبي الإسلام أن يحمي ساحته من الأفكار المضادة.

رابعاً: تقرير قاعدة راسخة من قواعد صرف الفساد عن الأرض وأهلها، وهي قاعدة التدافع والتفاعل بين الناس. وذلك في قوله تعالى: ﴿**وَلَوْلاَ دَفْعُ اللّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَـكِنَّ اللّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ**﴾ (البقرة: ٢٥١). وقوله تعالى: ﴿**وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ**﴾ (الحج: ٤٠) وهذا التدافع يثير في داخل المسلم روح الحوار ليشعره بأن محاورة الآخرين هي قضية رسالته التي دلّ عليها القرآن الكريم وبيّنتها السيرة النبوية تطبيقاً، ثم في سير القادة الفاتحين من الصحابة فمن بعدهم التزاماً دينياً وانتهاجها سياسة مع الآخرين.

خامساً: التزام آداب الحوار مع الآخر من القول الحسن وحسن الاستماع وآداب الإنصات والاحترام المتبادل وغير ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿**وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾ (الإسراء: ٥٣)، ﴿**وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً**﴾ (البقرة: ٨٣)، ﴿**وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾ (العنكبوت: ٤٦).

سادساً: تحفل السنة النبوية بمواقف المحاورة بين رسول الله صلى الله عليه وسلم والناس، المسلم منهم وغير المسلم، القريب منهم والبعيد، وآثارها في الهداية المرجوة أو التهيئة لها. وهي

الفائدة المتوخاة من الحوار - بإقامة الحجة ودفع الشبهة - في البلاغ بالإسلام والدعوة إليه كما في قوله تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ ﴾ (آل عمران: ١٠٤).

سابعاً: بالنظر إلى ما ينشأ من ضعف محتمل لدى المتلقي الآخر بسبب عدم تنوع الرؤى والتصورات من جهة، وزيادة الاهتمامات التي توجه إلى الإسلام في موضوعيته وملاءمته، وترسمه بصورة المجافي لمنطق العقل المصادر لحرية الفكر من جهة أخرى، فإن الحوار يكون حينئذ هو الأسلوب الأمثل المستمد من المنهج الشرعي الذي يجسِّد وصول الحوار إلى هدفه في مسار الحياة، بقصد التصحيح والتصويب، مع سلوك منهج الحكمة، مع ما يحتاج إليه من التعمق في قضاياه المتنوعة.

أصول الحوار

الأصل الأول:

سلوك الطرق العلمية والتزامها، ومن هذه الطرق:

١- تقديم الأدلة المُثبتة أو المرجحة للدعوى.

٢- صحة النقل في الأمور المنقولة.

وفي هذين الطريقين جاءت القاعدة الحوارية المشهورة: (إن كنت ناقلاً فالصحة، وإن كنت مدعياً فالدليل). وفي التنزيل جاء قوله سبحانه: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة: ١١١).

الأصل الثاني:

سلامة كلام المناظر ودليله من التناقض؛ فالمتناقض ساقط بداهة. ومن أمثلة ذلك ما ذكره بعض أهل التفسير من وصف فرعون لموسى عليه السلام بقوله: ﴿سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ (الذاريات: ٣٩). وهو وصف قاله الكفار - لكثير من الأنبياء بما فيهم كفار الجاهلية - لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم. وهذان الوصفان السحر والجنون لا يجتمعان، وهذا تهافت وتناقض بيّن.

الأصل الثالث:

ألا يكون الدليل هو عين الدعوى، لأنه إذا كان كذلك لم يكن دليلاً، ولكنه إعادة للدعوى بألفاظ وصيغ أخرى. وهذا تحايل لإطالة النقاش من غير فائدة.

الأصل الرابع:

الاتفاق على منطلقات ثابتة وقضايا مُسَلَّمة. وهذه المُسَلَّمات

والثوابت قد يكون مرجعها أنها عقلية بحتة لا تقبل النقاش عند العقلاء المتجردين؛ كحُسْنِ الصدق، وقُبحِ الكذب، وشُكر المُحسن، ومعاقبة المُذنب. أو تكون مُسَلَّمات دينية لا يختلف عليها المعتنقون لهذه الديانة أو تلك. فينبني على هذا الأصل أن الإصرار على إنكار المُسلَّمات والثوابت مكابرة قبيحة، ومجاراة منحرفة عن أصول الحوار والمناظرة، وليس ذلك شأن طالبي الحق.

الأصل الخامس:

التجرُّد، وقصد الحق، والبعد عن التعصب، والالتزام بآداب الحوار الذي يقود إلى طريق مستقيم لا عوج فيه ولا التواء، أو هوى، ومن مقولات الإمام الشافعي المحفوظة: (ما كلمت أحداً قطّ إلا أحببت أن يُوفّق ويُسدّد ويُعان، وتكون عليه رعاية الله وحفظه، وما ناظرني فبالَيْتُ! أظَهرَتِ الحجّةُ على لسانه أو لساني)، ويقول الغزالي: «التعاون على طلب الحق في الدين له شروط وعلامات منها: أن يكون في طلب الحق كناشد ضالة، لا يفرق بين أن تظهر الضالة على يده أو على يد معاونه، ويرى رفيقه معيناً لا خصماً، ويشكره إذا عَرَّفه الخطأ وأظهر له الحق». والمقصود من كل ذلك أن يكون الحوار بريئاً من التعصّب خالصاً لطلب الحق.

الأصل السادس:

أهلية المحاور، فليس كل أحد مؤهلاً للدخول في حوار صحيح يؤتي نتائج طيبة، فلا بد أن يتحقق في المحاور أمران مهمان هما:

أولاً: التأهيل العلمي: فلا بدّ للمحاور أن يكون عالماً بالمسألة التي يريد أن يحاور فيها، فلا يجوز للإنسان أن يدخل ساحة الحوار قبل أن يستكمل أدواته العلمية والعقلية، ويجب على من رزق العلم ألا يستعمله إلا فيما ينفع، كما قال محمد بن الحسين:«اعلموا رحمكم الله أن من صفة العالم العاقل الذي فقهه الله في الدين ونفعه بالعلم أن لا يجادل ولا يباري ولا يغالب بالعلم إلا من يستحق أن يغلبه بالعلم الشافي»[1].

ثانياً: التكافؤ بين المتحاورين، أي أن يكونا متقاربين في السوية العلمية والثقافية، وفي العقل والفهم، وإلا فإن الغلبة ستكون للجاهل، وسيطمس الحق في هذه المناظرة، ولا يظهر للمتحاورين ولا للحاضرين، وفي ذلك يقول الشافعي رحمه الله: «ما ناظرت عالماً إلا غلبته، وما ناظرني جاهل إلا غلبني»[2].

١) أخلاق العلماء، الآجرى، ص٥٦.

٢) الحوار في القرآن الكريم، محمد كمال الحويل، ص ٢٤.

الأصل السابع:

تحديد موضوع الحـوار ومـواطـن الاخـتـلاف، فقد يختلف المتحاوران في مسائل عديدة، وليس على مسألة واحـدة، ثم يحدث الحـوار في مسألة أخـرى، دون أن يتفق على المسألة الأولى، فيتشعب الحوار ويطول في أمور فرعية بعيدة عن موضوع المحاورة، ولهذا يكون الحوار عائماً لا زمام له، سائباً لا ينتهي إلى نتيجة، واستمراره بهذه الطريقة يعدّ تبديداً للجهد وإضاعة للوقت[1].

قال الربيع بن سليمان رحمه الله: «كان الشافعي إذا ناظره إنسان في مسألة فغدا إلى غيرها، يقول: نفرغ من هذه المسألة ثم نصير إلى ما تريد»[2].

الأصل الثامن:

قطعيّة النتائج ونسبيَّتها: من المهم في هذا الأصل إدراك أن الـرأي الفكري نسبيُّ الدلالة على الصواب والخطأ، والـذي لا يجوز عليهم الخطأ هم الأنبياء عليهم السلام فيما يبلغون عن ربهم سبحانه وتعالى. وما عدا ذلك فيندرج

١) الحوار أصوله المنهجية، وآدابه السلوكية، أحمد الصويان، ص ٦٤.

٢) تذكرة السامع والمتكلم في آداب العالم والمتعلم، ابن جماعة، ص ٤٠.

تحت المقولة المشهورة (رأيي صواب يحتمل الخطأ، ورأي الآخر خطأ يحتمل الصواب). وبناء عليه؛ فليس من شروط الحوار الناجح أن ينتهي أحد الطرفين إلى قول الطرف الآخر.

وفي تقرير ذلك يقول ابن تيمية رحمه الله: «وكان بعضهم يعذر كل من خالفه في المسائل الاجتهادية، ولا يكلفه أن يوافقه فهمه» ولكن يكون الحوار فاشلاً إذا انتهى إلى نزاع وقطيعة.

الأصل التاسع:

الرضا والقبول بالنتائج التي يتوصل إليها المتحاورون، والالتزام الجادّ بها، وبما يترتب عليها.

وإذا لم يتحقق هذا الأصل كانت المناظرة ضرباً من العبث الذي يستتر عنه العقلاء.

يقول ابن عقيل:(وليقبل كل واحد منهما من صاحبه الحجة؛ فإنه أنبل لقدره، وأعون على إدراك الحق وسلوك سبيل الصدق)، ويقول الإمام الشافعي رضي الله عنه:«ما ناظرت أحداً فقبل مني الحجَّة إلا عظم في عيني، ولا ردَّها إلا سقط من عيني».

آداب الحوار:

١- التزام القول الحسن، وتجنب منهج التحدي والإفحام، قال تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾(الإسراء: ٥٣) ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾. (النحل: ١٢٥) ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً﴾. (البقرة: ٨٣).

وقال الله لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (الحج: ٦٨ - ٦٩).

وقوله: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾(سبأ: ٢٤). مع أن بطلان ما هم عليها ظاهر، وحجتهم داحضة.

٢- الالتزام بوقت محدد في الكلام:

حتى لا يخرج عن حدود اللباقة والأدب والذوق الرفيع. يقول ابن عقيل في كتابه فن الجدل: «وليتناوبا الكلام مناوبة لا مناهبة، بحيث ينصت المعترض للمُستَدِلّ حتى يفرغ من تقريره للدليل، ثم المُستدِلُّ للمعترض حتى يُقرر اعتراضه، ولا يقطع أحد منهما على الآخر كلامه وإن فهم مقصوده من بعضه».

٣ - حسن الاستماع وأدب الإنصات وتجنب المقاطعة:

وقد قال الحسن بن علي لابنه، رضي الله عنهم أجمعين: «يا بنّي إذا جالست العلماء؛ فكن على أن تسمع أحرص منك على أن تقول، وتعلم حُسْنَ الاستماع كما تتعلم حسن الكلام، ولا تقطع على أحد حديثاً - وإن طال - حتى يُمسك). ويقول ابن المقفع: (تعلم حُسن الاستماع كما تتعلم حسن الكلام؛ ومن حسن الاستماع: إمهال المتكلم حتى ينقضي حديثه. وقلة التلفت إلى الجواب. والإقبال بالوجه. والنظر إلى المتكلم. والوعي لما يقول).

٤- تقدير الخصم واحترامه:

ينبغي في مجلس الحوار التأكيد على الاحترام المتبادل من الأطراف، وإعطاء كل ذي حق حقه، فإن هذا يقود إلى قبول الحق، والبعد عن الهوى، أما انتقاص الرجال وتجهيلها فأمر مَعيب مُحرّم.

٥- حصر المناظرات في مكان محدود:

ومما استدل به على ذلك قوله تعالى: ﴿ **قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا** ﴾ (سبأ: ٤٦). قالوا: لأن الأجواء الجماهيرية والمجتمعات المتكاثرة تُغطي الحق، وتشوِّش الفكر.

٦- الإخلاص:

فعلى المحاور أن يوطّن نفسه، ويُروّضها على الإخلاص للّه في كل ما يأتي وما يذر في ميدان الحوار وحلبته.

ثقافة الحوار في الحضارة الإسلامية

إن بناء شخصية المسلم المرتبط برسالته، الملتزم في مواقفه بأحكامها مع المجتمع من حوله يحتاج إلى تنمية ثقافة الحوار لديه كقيمة من قيم الحضارة الإسلامية المستندة أساساً إلى مبادئ الدين الحنيف وتعاليمه، ليعيش بين الناس الإسلام عقيدة وسلوكاً وشعوراً، وهو تعبير عن أبرز سمات الشخصية الإسلامية السويَّة، وهي سمة التسامح، لا بمعنى التخاذل والضعف والهزيمة النفسية، ولكن بمعنى الترفع عن الصغائر، والتسامي على الضغائن، والتجافي عن الهوى والباطل.

وفي ظل هذا المفهوم فإن قواعد الحوار في شخصية المسلم تقوم على قواعد ثلاث:

القاعدة الأولى: الإيمان باللّه ورسوله وكتابه، وتقوى اللّه، والتواضع له سبحانه، والثقة في نصره، والاعتزاز بالحق والتشبث

به، يقول تعالى في محكم التنزيل: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (المنافقون: ٨) ويقول سبحانه: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ (فاطر: ١٠) وبقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (يونس: ٦٥).

القاعدة الثانية: التأدب بأخلاق الإسلام، والتأسي بسيرة النبي صلى الله عليه وسلم وسيرة صحابته الكرام في الحوار، ومخاطبة الناس من منطلق الإيمان بوحدة النوع الإنساني أولاً، قال صلى الله عليه وسلم: (كلكم لآدم وآدم من تراب). والمجادلة بالتي هي أحسن ثانياً، يقول تعالى: ﴿ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (النحل: ١٢٥)، ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (العنكبوت: ٤٦).

القاعدة الثالثة: نشدان الحق والبحث عنه والسعي إلى الحقيقة والتماسها، والقصد إلى ما فيه الصالح العام من شتى الطرق التي ليس فيها انحراف عن محجة الشرع، وبمختلف الوسائل التي تحقق مصالح العباد والبلاد، يقول الحافظ الذهبي: «إنما وضعت المناظرة لكشف الحق، وإفادة العالم الأذكى العلم لمن دونه وتنبيه الأغفل الأضعف».

الخاتمة:

على الرغم من الطبيعة المتشعبة للحوار، فإنه ليس تعسفاً في المناظرة أو مماحكة في المجادلة، ولكن صيغة جامعة، وأسلوباً من أساليب التقارب والتجاوب والتفاعل؛ ولذلك فإن من شروط الحوار الجاد الهادف أن يتصف بالحكمة والموعظة الحسنة، وفي السياق القرآني تُتَّبع الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن، كما في قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (النحل: ١٢٥). وينطبق هذا على الحوار انطباقاً كاملاً، وبهذا المعنى، فإن الحوار قوة وسلاح من أسلحة السجال الثقافي والمنافسة الحضارية، وهو وسيلة ناجحة من وسائل الدفاع عن المصالح العليا للأمة، وشرح قضاياها، وإبراز اهتماماتها، وتبليغ رسالتها، وإذا كان الحوار أصلاً ثابتاً في الحضارة الإسلامية فإنه من مبادئ الشرع الحنيف استناداً إلى قوله تعالى:﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ﴾(آل عمران: ٦٤). فهذه الآية

في عمقها وجوهرها، وفي مغزاها ومعناها، دعوة إلى الحوار الراقي الهادف.

وعلى هذا فإن الحوار الذي ندعو إليه وندخل فيه ونتبناه هو الذي يستمد من الإسلام روح الاعتدال، لأن أحكام الإسلام تسودها روح الاعتدال، فهي تنبذ التطرف؛ ووردت الكثير من الآيات القرآنية في مواضع مختلفة تشير إلى هذا، منها قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ﴾ (البقرة: ١٤٣). وهكذا، فإن الحوار في شريعة الإسلام، وفي مفهوم الفكر الإسلامي، هو الحوار الذي ينزع منزع الوسطية والاعتدال، استمداداً من دلالة لفظ حرف القرآن في الآية الكريمة، فهو حوار بالكلمة الراقية، وبالمنهج السوي يسهم في تعميق وعي الإنسان، ويثير فيه القابلية للاقتناع والإقناع بشكل تدريجي بعيد عن الانفعال، معترفٌ للآخرين بحقهم في التفكير بطريقتهم، وبهذا يوجد المجتمع الإسلامي المتوازن الذي يقود الآخرين معه إلى تنمية جوانب الخير والقيم الإنسانية المشتركة، ويعظم التمسك بمكارم الأخلاق، ليرتكز الجميع على الحق. والله الهادي إلى سواء السبيل، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الحوار والعلاقة بين أتباع الأديان

الحوار والتعايش بين أتباع الديانات والثقافات

أ.د. عز الدين إبراهيم*

١- من الحرب إلى طاولة المفاوضات:

أ- بعد أن وضعت الحربان العالميتان الأخيرتان أوزارهما، تنفَّس العالم الصُّعداء، وحاول أن يخرج من دوامة الحروب والصدامات السياسية والعسكرية، إلى حالة من المسالمة والمهادنة والأمـان، وحل الخلافات بالجلوس حول مائدة المفاوضات، وإقامة علاقات التفاهم الناعم بين الدول والشعوب.

وأصبح التوجه السياسي المتمدن الحديث هو التفاوض السلمي

* مستشار الشؤون الثقافية بدولة الإمارات العربية المتحدة. أتم دراسته في جامعتي القاهرة وعين شمس ونال دكتوراه الآداب من جامعة لندن. تقلد عدة مواقع من الإدارات التعليمية والثقافية في عدد من الدول العربية. عمل أستاذاً للأدب العربي بجامعة الملك سعود ، ودرَّس علوم القرآن في جامعتي أكسفورد وميتشيجان آن آربور بالولايات المتحدة . له صلة وثيقة بحوار الأديان والحضارات . من كتبه المنشورة ترجمات إلى الإنجليزية لعدد من كتب الحديث النبوي. (**مصر**) .

بين الدول المتحالفة، إما مباشرة وإما بمعاونة اللقاءات الدولية من خلال «عصبة الأمم» أولاً ثم منظمة الدول المتحدة أخيراً.

ب- وعاضد هـذا التوجه أو انبثق عنه صياغة مجموعة من المفاهيم والشعارات والبرامـج الوفاقية، ومنها: شعار (الـ Détente أي التهدئة و Raproachement أي التقارب الودادي) وهو تعبير فرنسي أقره الرئيسان الأمريكي نيكسون والسوفيتي بريجينيف، وشعار (Coexistence أي التعايش) الـذي أطلقه الرئيس السوفيتي خوروتشـوف، ثم طـوره في التفاصيل الرئيس الصيني دنج زبوبنبج Deng Xiaoping فجعله One Country - Two Systems) (أي دولة واحدة تحتضن نظامين اقتصاديين مختلفين بالإشارة إلى حالة إقليم هونج كونج الذي عاد إلى الصين الشيوعية مع احتفاظه بالنظام الرأسمالي)، وأخيراً شعار (الانفتاح والشفافية) الذي نادت به معظم الدول وبلوره الرئيس السوفيتي جورباتشوف بالتعبير الروسي (Glasnost). وليس بعيداً عن ذلك قيام الاتحادات الاقتصادية في الغـرب أولاً ثم الشرق الأقصـى وأشهرها (الاتحاد الاقتصادي الأوروبي) الذي سبق (الاتحاد الأوروبي) وربما تسبب في قيامه، ثم شعار (العولمة) الـذي ما زال قيد

التنقيح حتى تتراضى به دول العالم ويؤدي إلى تنسيق تعاونها الاقتصادي.

وعـن طريق الجمعية العمومية ومجلس الأمـن في منظمة الدول المتحدة، أصبح خيار (التفاوض) والجلوس حول الطاولة الواحدة هو البديل المختار المرتضى بين دول العالم، ومع أن هذه الدول لا تزال تحتفظ بأسلحة الردع، وتستمر في تطوير الإنتاج العسكري، وتضع أصابعها على زناداتها، فإن مسيرة التفاوض والتعايش تسير محفوفة برضا الشعوب وتمنياتها بعدم اللجوء إلى الحروب.

٢- من صدام الحضارات إلى الحوار الديني والحضاري:

أ- وكان طبيعياً أن يوجد مع التوجه السياسي من الحروب إلـى التفاوض، توجه مشابه على الصعيد الديني والحضاري، بالعدول عن التصادم إلى الحوار. وقد تبلور هذا التوجه بوجود ثلاثة محاور أو حوارات رئيسة هي: الحوار النصراني الإسلامي، وحـوار الحضارات، والحـوار بين أهل جميع الأديـان والثقافات، وكلها تهدف في النهاية إلى ترميم العلاقات الروحية والفكرية والحضارية، وإقامة السلام والتفاهم والتسامح بين البشر أجمعين رغم اختلاف انتماءاتهم ومعتقداتهم وتنوع حضاراتهم.

ب- ونقصد بمحور الحوار النصراني الإسلامي، النداء الذي صدر عن الباب بولس السادس، المسمى Ecclesiam Suam، في ٦ أغسطس ١٩٦٤م، بناء على مقررات المجمع المسكوني الثاني للفاتيكان الذي ترأسه البابا يوحنا الثالث والعشرون، والذي يذكر الدين الإسلامي بالخير، من حيث دعوته إلى عبادة الله الواحد، وما تتضمنه تعاليمه من عبادات كالصلاة والصيام، وما يؤكده من قيم خلقية، كما نادت مقررات هذا المجمع بنسيان ماضي التصادم بين النصرانية والإسلام. وقد توالى التأييد لهذا النداء الوفاقي من مجمع الكنائس النصرانية في جنيف والكنيسة الإنجليكية في إنجلترا. ووضعت آليات جادة لمتابعة تنفيذ هذا النداء في الفاتيكان بإنشاء (أمانة السر لشؤون غير النصارى) و(دائرة الحوار مع الشعوب ذوات العقائد الحية والأيديولوجيات)[1].

جـ- وتجاوب العالم الإسلامي مع هذا النداء، ورحب بالحوار المقترح بصفة عامة، ولكن أبرز تجاوب هو ما جاء من المملكة العربية السعودية والجماهيرية العربية الليبية. فقد قامت

1) The Vatican, Ecclesian Suam, 1964.
Living Faiths and the ecumenical Movement, World Council of Churches Geneva 1971.

رابطة العالم الإسلامي في السعودية بتشكيل وفد برئاسة أمينها العام الشيخ محمد الحركان ويضم الدكتور معروف الدواليبي، وزار هذا الوفد مراكز الحوار النصرانية في الفاتيكان، وجنيف، وباريس، وستراسبورج وقامت حوارات جادة مدونة، صدرت بالعربية والإنجليزية والفرنسية تحت عناوين (ندوات علمية) و (Conferences on Moslem Doctrine and Human Rights in Islam)[1].

كما أن الجماهيرية العربية الليبية قد نظمت مؤتمراً موسعاً في طرابلس ١٩٧٦م حضره بضع مئات من العلماء والباحثين المسلمين والنصارى، وقد دونه الفاتيكان ووصف مجرياته في إصدار بتاريخ أكتوبر ١٩٧٨م، واستتبع ذلك عقد حلقات وندوات حوارية في عدد كبير من المدن النصرانية والإسلامية على مدى الأربعين سنة الماضية. ومعظم هذه الحلقات والندوات موثقة لدى النصارى لوجود الآليات المتخصصة التي أشرنا إلى بعضها، في الوقت الذي يقل التوثيق من الجانب الإسلامي إلا في الكتابات الفردية التي تضمنتها كتب بعض العلماء المسلمين عن الحوار.

1) Conferences on Moslim Doctrine and Human Rights in Islam, Dar al-Kitab al- Lubnani, Beitut, 1973.

د- وقد كانت للحوار الإسلامي النصراني بلا شك إيجابيات وسلبيات، سبق لي أن كتبت عنها، وأكتفي هنا بذكر أهمها. فمن الإيجابيات كسر حاجز التباعد الذي أعقب الحروب الصليبية وحركة الاستعمار المبطنة ولو جزئياً بدوافع دينية، ومنها إنشاء علاقات شخصية بين رجالات الفريقين تساعد على التفاهم والاستمرارية، وقيام التعاون بين المسلمين والنصارى في القيم المتفق عليها بين أهل الأديان وإبرازها في المؤتمرات الفكرية مثل: أهمية الإيمان، والعناية بالأسرة، وتحاشي المنكرات والشذوذات الخلقية، وترشيد البحوث العلمية لتحاشي الإضرار بالبشر، وحماية الحياة البشرية من الإجهاض غير المبرر، والخلقة الإنسانية من الاستنساخ والاستنبات العضوي، وأخيراً وليس آخراً التوصل إلى أجندة لحوارات المستقبل، بتصفية النوايا، والواقعية في الآمال، وحذف الحوارات التي تنكأ الجروح وتزيد الطين بِلَّةً.

ومن سلبيات هذا الحوار، التورط أحياناً في حوارات تثير الشكوك حول المقصود من الحوار، هل هو التفاهم أو التبشير، ومنها طول الزمن دون نتائج ملموسة مما حملني على كتابة ورقة عمل لإحدى ندوات الحوار عنونتها «بعد أربعين سنة من

الحـوار الإسلامي النصراني: ما الجـدوى وما المستقبل»[١]. وأخيراً أيضاً وليس آخراً وقوع الحـوارات بالتزامن مع إحياء العداوات بمساندة عدد من الدول النصرانية وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية لإسرائيل والتحيز معها وتجاهل حقوق العرب. وتطلب الأمر سنوات طويلة مخزنة قبل أن يأتي رئيس شجاع هو باراك أوباما ليبين نيته في التعامل العادل المتوازن بين طرفي النزاع وهذا هو أقصى المراد منه.

هـ- على أن نقطة الضعف الكبرى في هذا النوع من الحوار هي فقدان (التعريف) الذي يلزم المتحاورين بحدود لا يُسمح بتجاوزها مثل التبشير، والتلفيق الديني، وقد تشجع أحد الباحثين النصارى، وهو العالم النرويجي الدكتور هالتكروتز فكتب بحثاً منشوراً [٢] كشف فيه أن العلاقة بين النصرانية والإسلام بدأت حقيقة بمحاولة (التبشير) الصريح كما ظهر في مؤتمر أدنـبرة سنة ١٩١٠م ومؤتمر تامبرام/ الهند سنة ١٩٣٨م، وغيرهما. وأعقب ذلك محاولة تبشيرية مخففة يمكن

١) عز الدين إبراهيم: بعد أربعين سنة من الحوار الإسلامي النصراني، ما الجدوى وما المستقبل، ط ٢، دار الفجر، أبو ظبي ٢٠٠٦م.

2) Carl f. Hallencreutz, Living Faiths, W.C.O.C, pp. 57 - 71, Geneva 1971.

تسميتها (البشارة) اعتماداً على نظرية أن المسيح (يعمل من داخل المعتقدات) بقصد تصحيحها، ومقتضى هذه النظرية هو طرح الأفكار النصرانية في مواجهة المتعقدات الدينية الأخرى، ومنها الإسلامية، على ظن أن هذه المواجهة ستؤدي إلى التصحيح أو التعديل أو أي درجة أخرى من التقريب، فلما لم ينجح (التبشير) ولا (البشارة)، جاءت فكرة (الحوار)، وعليها رشحات من الأفكار التي سبقتها. لذلك فقد حرص المحاورون المسلمون في طرابلس الغرب ١٩٧٦م على صياغة تعريف قبله الجميع من نصارى ومسلمين، وهو يدعو إلى الاقتصار على تبادل المعلومات، وعدم المساس بالمعتقدات، والتعامل المتبادل بالمودة والاحترام [١]. ثم حُسِّن هذا التعريف فيما بعد بما تبناه (الفريق العربي للحوار الإسلامي النصراني) ومقره بيروت، من ضرورة اقتصار الحوار على تحقيق (العيش المشترك) بين أتباع الدينين ليس غير.

ويمكن القول: إن مسيرة الحوار النصراني الإسلامي - كما سمي باعتبار المنشأ - قد أسهمت في تأكيد أهمية (الحوار)

١) عز الدين إبراهيم: كيف نعمل على إزالة الأحكام المستبقة الخاطئة، ص ١٩، مطبعة الظواهر، أبوظبي ١٩٧٧م.

بين المسلمين والنصارى، واعتباره الخيار الإستراتيجي الأوحد للعلاقات فيما بينهما، وعدم الارتكاس في التصادم والتناحر.

٣- حوار الحضارات خاصة:

أ- عُنـيَ الباحثون في شـؤون الحضـارات، خاصة خلال العقود الأخيرة بدراسة الحضارات العالمية من حيث أعدادها وأنماطها، وكذلك من حيث علاقاتها فيما بينها. من أبرز هـؤلاء العالم الألماني أوزوالـد شبِنْجلر Oswald Spengler الذي قال في كتابه (انحطاط الغرب) أن الحضارات العظيمة الكبرى تسع، هي المصرية، والبابلية، والهندية، والصينية، والكلاسيكية (ويعني بها اليونانية والرومانية)، والعربية، والمكسيكية، والغربية، والروسية، والأهم بين هذه الحضارات ثلاث هي: الكلاسيكية، والعربية، والغربية.

وجاء من بعد شبِنْجلر الذي كتب ما كتب سنة ١٩١٨م، علماء آخرون، زادوا العدد إلى عشر، أو ركزوه في حضارة واحدة على أساس وحدة الفكر الإنساني جوهرياً مع تعدد صوره تعبيرياً، وتوسع أرنولد تُوينْبِي الإنجليزي Arnold Toynbee فجعل الحضارات إحدى وعشرين[١].

١) قسطنطين رزيق: معركة الحضارة، بيروت، ص ٦٠ وما بعدها.

ب- أما عن علاقات الحضارات فيما بينها، فهي علاقات تعارف وتداخل، وتكامل، إما بحكم الجغرافيا كتقارب اليونان والرومان، وتقارب العرب والفرس، وإما بحكم الجهود المبذولة لتحقيق هذا التقارب عن طريق الرحلات الاستكشافية، وقوافل التجارة، ونقل الكتب العلمية وغيرها مما هو مفصل في تاريخ الحضارات، وتعدُّ (الحضارة العربية الإسلامية) مثلاً واضحاً لتقارب الحضارات بالنقل والتكامل فيما بينها. وقد فصل ذلك الأستاذ أحمد أمين في الجزء الأول من كتابه (ضُحى الإسلام) فبين النقل المتبادل مع الحضارات اليونانية والصينية والفارسية، وبمزج ذلك مع الثقافة العربية، ظهرت الصيغة المتكاملة للحضارة العربية الإسلامية العتيدة، ولم تتحفظ الحضارة العربية في النقل، وإنما تحفظت في الهضم والتمثُّل بما يبقي الدين الإسلامي مصوناً والهوية العربية الإسلامية متميزة ومستقلة، وما عدا ذلك فعطاء الحضارات خوان من الخيرات مفتوح، نأخذ منه ما يفيد وندع ما يضر، وصدق رسولنا صلى الله عليه وسلم بقوله: «الحكمة ضالة المؤمن، أنى وجدها فهو أحق الناس بها».

جـ- وقد ظل مفهوم التعدد الحضاري والتكامل فيما بينهما قائماً، إلـى سنة ١٩٩٣م، بعد انهيار الاتحـاد السوفيتي، إذ خرج أستاذ العلوم السياسية في الولايات المتحدة الأمريكية صمويل هنتجتون بنظرية (صراع الحضارات). ومن يراجع كتابات الباحث المذكور قبل كتابته لهذه النظرية وبعدها يجد أن الرجل تسيطر عليه فكرة (الصراع والتصادم) التي يراها قد صنفت التاريخ الإنساني؛ بدءاً بالصراع بين الملوك والحكام والأمـراء، ثم التصادم بين الدول والشعوب، ثم التصادم بين الأيديولوجيات (الشيوعية والرأسمالية)، وأخـيراً الصراع بين الحضارات. واقتضاه ذلك أن يحصر الحضارات في ثمان هي: الغربية، واللاتينية الأمريكية، والكونفوشية، واليابانية، والهندوسية، والإسلامية، والأرثوذكسية السلافية، والأفريقية. وأجمل المواجهة الحضارية بعبارة مختصرة هي (الغرب في مواجهة الآخـرين The West V. The Rest ولكنه اختار للمواجهة الفورية أن تكون بين الغرب والكونفوشية (وقصد بها الصين) وبين الغرب والإسلام. وأعطى الأولوية للحالة الأخيرة، فيكون بذلك قد أعطى الغرب (عدواً جديداً) بعد انهيار العدو الشيوعي، وإذا أراد الغرب أن يتوسع فالصين مرشحة لذلك.

د- إن نظرية هنتجتون غير أمينة أو دقيقة من حيث تسمية الحضارات، وغير مبررة من حيث التأكيد على حتمية الصراع. فهو أولاً لم يعتمد في تصنيف الحضارات على أي معيار علمي مذكور. وليس تجنياً أن نراه قد نقل تصنيف (شبنجلر) بإنقاصه من تسع حضارات إلى ثمان. والحضارة التي لم يذكرها هي الحضارة اليونانية الرومانية التي هي العمود الفقري للحضارة الغربية. كما أنه غيَّر تسميات شبنجلر فأطلق على (الصينية) تسمية (الكونفوشية) وأطلق على الروسية تسمية (الأرثوذكسية السلافية) ولعله قصد بتسمية الكونفوشية التركيز على الصين وعزل اليابان، مع أن فلسفة كونفوشيوس، وكذلك الديانة البوذية قد شاعتا في الصين واليابان معاً. ثم لعله قصد بعبارة (الأرثوذكسية السلافية) أن يضم إلى روسيا أشباهها في التوجه السياسي المتاخمين وكذلك أهل البلطيق، فالرجل فيما يبدو مدفوع باعتبار سياسي، لأن بحثه في البداية كان تقريراً سياسياً نشره في مجلة (الشؤون السياسية Foreign Affairs Magazine) ثم حوله إلى كتاب. وأما ادعاؤه بحتمية الصراع الحضاري فلم يورد له لا في مقال الدورية السياسية ولا في الكتاب النظري أي تبرير علمي. فلو كان يريد مراجعة التاريخ

الحضاري، فهو تاريخ تعارف وتناقل وتكامل وربما تنافس بين الحضارات، وليس تاريخ صراع. ولو أراد أن يستخدم معياراً آخر غير الإسقاط التاريخي على المستقبل، فقد كان من واجبه أن يبين ذلك ويسوق الأدلة عليه.

ولنا أن نظن أن الرجل إما أن يكون باحث (مبرِّرات)، والتاريخ مليء بباحثي (المبررات) كهؤلاء الذين برروا (الحروب الصليبية) قديماً وكذلك الذين برروا (حرب العراق) مؤخراً؛ وإما أن يكون سيكلوجياً من أصحاب الفكر التشاؤمي الذين يتصورون العدوان قائماً في كل لحظة. وقد ذكر ذلك بعض الباحثين الفرنسيين الذين سموا هنتجتون (نبي التشاؤم Prophete de Malheur)، كما أن صحيفة الشؤون الدولية في مارس سنة ١٩٦٦م وصفت النظرية بأنها نظرية للتعصب المضاد Prejudice as a Social Science Theory. ويقوي الظن السيكولوجي أن الرجل دعا في كتاب لاحق سنة ٢٠٠٤م، وعنوانه «من نحن: تحديات الهوية الوطنية الأمريكية»، إلى الحذر من الهجرة اللاتينية التي قد «تقسم الأمريكيين قسمين، والحضارة حضارتين، واللغة لغتين»، وهو كلام واضح التشنج.

هـ - وجاء الرد على نظرية التصادم من العالم الإسلامي، في القمة الإسلامية الثامنة في طهران سنة ١٩٩٨م، ضمن خطاب للرئيس محمد خاتمي، الذي دعا إلى (حوار الحضارات) لا إلى تصادمها، وعزز ذلك بعقد مائدة مستديرة شارك فيها الأمين العام لمنظمة الدول المتحدة في مقرها، وتلا ذلك صدور قرار الجمعية العامة للمنظمة بتاريخ ٤ نوفمبر ١٩٩٨م باعتبار سنة ٢٠٠١م السنة العالمية للحوار بين الحضارات.

واستمرت الحوارات الحضارية طوال العقد الماضي وما زالت مستمرة، وعُنيت بذلك على المستوى العالمي منظمة اليونسكو، وعلى المستوى الإسلامي جامعة الدول العربية ومنظمة المؤتمر الإسلامي وخاصة جهازها الثقافي النشيط (الأسيسكو) باهتمام بالغ من الدكتور عبدالعزيز التويجري، الذي عقد قرابة عشر ندوات، بدءاً بمؤتمر دولي في القيروان مقر أول جامعة في حوض البحر الأبيض المتوسط وأوروبا، ومروراً بعدد من المدن الإسلامية والأوروبية من عناوينها: الحوار والتنوع الثقافي - الحضارات من الحوار إلى التحالف - تعزيز الحوار الحضاري بمبادرات مستدامة - والتنوع الحضاري في إطار التكامل - والحوار من أجل الفهم

والتفاهم - والحوار من أجل التعايش - والحوار الحضاري بين التنظير والتنفيذ - والحـوار في عـالم متغير - وهكذا. وما أظن أن «الأسيسكو» قد تركت وجهاً من وجوه التقارب الحضاري إلا وعرضته للدراسة التي شارك فيها ممثلون من جميع الحضارات، وأكدته بوصف شامل هو أن «الحوار بين الحضارات، هو اختيار استراتيجي تفرضه التحديات الكبرى التي تواجه المجتمع الدولي»[١].

وبهذا الموقف العالمي، استجابة للمبادرة الإسلامية، تكون الدعوة إلى الصدام قد أصبحت بلا مصداقية، وحلت محلها الدعوة إلى الحوار والتعايش والسلام.

٤- الحـوار بين أتبـاع الأديـان والثـقافات: المبادرة السعودية

أ- تبين مما سبق أن العالم الإسلامي متجه بصدق والتزام نحو الحـوار الديني، الـذي تسمى منذ بدايته المعاصرة حتى الآن (بالحوار النصراني الإسـلامـي)، وكذلك نحو (حوار الحضارات). وفي حوار مستقل قبل ذلك وبعده يرفض العالم الإسلامي بحكم التعاليم الصحيحة لدينه اللجوء إلى العنف

١) د. عبدالعزيز التويجري: منشورات الأسيسكو عن حوارات الحضارة، الرباط.

والإرهـاب لحل الخلافات، ونظراً لأن مجموعات من الشباب المسلم قد خالفت ذلك واتهمت بالتورط في أعمال إرهابية مرفوضة داخل العالم الإسلامي وخارجه، فقد انبرى المفكرون والعلماء في العالم الإسلامي لاستنكار هذه الأعمال وبيان مخالفتها لأحكام الدين. وأكتفي هنا بذكر جهدين أولهما صادر عن الجامع الأزهر الشريف في مصر، وهو أحد المنابر الإسلامية الكبرى في العالم الإسلامي، وذلك بتأليف كتاب من مجلدين بعنوان (بلاغ للناس من الأزهر الشريف) تم نشره وتوزيعه على أوسع نطاق لتأكيد رفض المرجعيات الإسلامية للعنف بكل صورة[1]. وثانيهما عقد مؤتمر علمي عالمي لنفس الغرض في الجزائر في ديسمبر سنة ٢٠٠٤م، بتنظيم منظمة الإسيسكو المرتبطة بمنظمة المؤتمر الإسلامي التي تضم جميع الدول الإسلامية.

وإلـى جـوار هذين الجهدين لا يكف المثقفون المسلمون عن دعم هذا التوجه عبر الصحافة والقنوات التلفزيونية والندوات الفكرية واللقاءات مع الشباب في الجامعات ومراكز التجمع الشبابي.

١) الأزهر الشريف: بيان للناس من الأزهر الشريف، مطبعة الأزهر، القاهرة ١٩٨٤م.

إن مشكلة الإرهاب هي مشكلة إنسانية غير مقيدة بدين معين أو شعب معين أو ظرف سياسي معين، بل هي تفجر شبابي يقع في جميع القارات وبشتى المبررات، ومن سذاجة التحليل حصره في العالم الإسلامي، مما أدى إلى تحفظٍ بل معاداة غير مبررة تحت عنوان (إسلاموفوبيا)، وعلاج هذه المشكلة متشعب ويجب أن تتضافر جميع الدول على دراسته والتعاون في تطبيقه.

ب- وأما دور العالم الإسلامي في الحوار النصراني فقد كان بنَّاءً منذ البداية كما بيّنَّا سابقاً، وأزعم، وقد شاركت في عدد غير قليل من ندوات هذا الحوار، أن العالم الإسلامي قد تعاون مع العالم النصراني على تنقية هذا الحوار من معكراته وسلبياته، وهو الآن حوار لتبادل المعلومات، وتنسيق المواقف فيما يتفق عليه أتباع الدينين، والمشاركة الجادة في جهود التنمية الاجتماعية في كل مكان، وأخيراً وليس آخراً دعم السلام العالمي والوفاق بين بني الإنسان.

وفي حوار الحضارات، كان العالم الإسلامي هو السبَّاق والمتابع بصفة مستدامة. وقد يكون مفيداً أن نضيف إلى ما سبق ذكره، أن العالم الإسلامي قد أضاف إلى بوتقة الحضارة الغربية التي لا ينكر تأثيرها على العالم كله، بعض المعطيات

الرئيسة ومنها: ترجمة التراث الهيليني اليوناني وإيصاله إلى أوروبا، وتقديم ما قد تم من إنجازات علمية في مجال الطب والفلك والرياضيات والفيزياء وغيرها، ونقل المبادرة في إنشاء الجامعات وعرض نماذجها في القرويين في المغرب وقرطبة أثناء الوجود العربي، وجامعة الأزهر في مصر، قبل أن تنشأ جامعات سالرنو وبولونيا وباريس وأكسفورد في القرن الثاني عشر الميلادي[1]. فلما انبثق عصر النهضة الأوروبية وتوسعت الحضارة الغربية وجامعاتها، كان علينا أن نغترف الآن منها، كما أعطيناها سابقاً. فالحوار الحضاري متبادل، ويؤدي إلى التكامل، ويقلل احتمالات الخلاف والمخاصمة والصدام.

ج- ثم جاءت مبادرة موسعة من المملكة العربية السعودية، تجتهد في استيعاب الجهود السابقة في مجالها، وقد أعلن هذه المبادرة من مكة المكرمة سنة ٢٠٠٨م خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز، ثم عززتها رابطة العالم الإسلامي بتنظيم مؤتمر عالمي في مدريد في السنة نفسها دعي إليه ممثلون عن جميع الأديان والمعتقدات والثقافات وشارك فيه عدد من

١) ش. هاسكنز: نشأة الجامعات. ترجمة جوزيف نسيم يوسف، شركة الإسكندرية للطباعة، الإسكندرية ١٩٧١م.

المسؤولين والمفكرين في العالم، وشارك في افتتاحها وتوجيهها كل من الملك عبدالله بن عبدالعزيز صاحب المبادرة، والملك خوان كارلوس ملك أسبانيا التي استضافت المؤتمر وكذلك السيد خوسيه ثاباتيرو رئيس الوزراء، وقد سميت هذه المبادرة رسمياً (الحوار بين أتباع الأديان والثقافات).

وقد تميزت هذه المبادرة على وجه الإجمال، بصدورها من ملك لدولة إسلامية محافظة، وبأنها منفتحة للمشاركة الجادة الموسعة مع الفرق والمذاهب والمدارس الفكرية في الأديان والمعتقدات والثقافات وليست مقتصرة على بعض منها فقط، وأخيراً بأنها وضعت برامج وآليات للعمل المستقبلي لضمان المتابعة والاستمرارية.

د - أما أنها صادرة عن ملك لدولة إسلامية محافظة، فلأن الجهود السابقة قد صدرت أساساً من العالم الغربي، إما بمرجعية دينية رئيسة للدين النصراني تمثلت في الفاتيكان مركز الكاثوليكية، وإما بمؤسسة ثقافية رسمية كاليونسكو، دون إغفال صدور بعضها عن العالم الإسلامي. وكأن تاريخ الحوار كان يحتاج إلى تكملة طبيعية منتظرة، بصدور مبادرة من قلب العالم الإسلامي، وبلسان رئيس بارز من رؤسائها

الذين يتحلون بالوصفين الزمني والروحي معاً. فتحقق ذلك بهذه المبادرة التي تعطي مسيرة الحوار الزَّخْم والتكامل التي كانت تحتاج إليه.

وأما أنها متسعة شاملة، فلأن الاقتصار على فريق واحد من بني البشر لا يحقق المطلوب. ومن وجهة نظر العالم الإسلامي، لا ممانعة في ذلك، دون تنكر للالتزامات الدينية لكل مشارك. فالمسلم مستمسك بعقيدته وغير مستعد للتفريط فيها، وهو يقرأ في القرآن الكريم ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ﴾. (آل عمران: ١٩)، ولكنه في الوقت نفسه يعيش في الكون مع آخرين لا يمكن أن يتجاهلهم أو يخادعهم، فالنصارى واليهود هم «أهل الكتاب» في المصطلح الإسلامي، والمجوس - وإن تلاشوا تقريباً - والهندوس والبوذيون، يتعامل المسلمون معهم وفقاً لقول النبي صلى الله عليه وسلم (سُنوا بهم سُنة أهل الكتاب) [١] ومفهوم ذلك التعايش معهم بالعدالة والمعاملة الحسنة، والمشاركة في أمور الحياة كالمواطنة والتزاماتها المدنية حيثما يعيش المسلمون معهم في وطن واحد، ومتطلبات المعايشة الإنسانية الصحيحة في المؤاكلة والمشاربة والمشاركة في الأعمال

١) الشيخ حسنين مخلوف: صفوة البيان في تفسير القرآن، سورة (الكافرون).

وشؤون الحياة، والمعروف ديمغرافياً أن الهندوس والبوذيين وحدهم يشكلون قرابة ٤٠٪ من سكان الكرة الأرضية، فهل يجوز إدارة الظهر لثلث سكان الأرض، وقد تداخلت المعايش بالهجرات والسفرات.

ويدعم هذا المفهوم الموسَّع ثلاثة نصوص قرآنية، أولها قول الله تعالى: ﴿ **لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ** ﴾. (الكافرون :٦)، وقد استقر الرأي عند المحققين من العلماء بأن هذه الآية الكريمة عامة غير مخَصَّصة، ومُحكَّمة غير منسوخة، بمعنى أنها غير مقصورة على القوم الذين خوطبوا بها وهم كُفار قريش، بل مفتوحة في أمور التعايش لجميع الآخرين، وكونها مُحكمة يقصد بها أن حكمها مستمر لا ينقضه ما يخالفه، والثاني قول الله تعالى: ﴿ **وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ** ﴾. (النساء :١٦٤)، بمعنى أن علمنا بمن أرسلهم الله من نبيين محدود. ومع أن رسالة النبي محمد صلى الله عليه وسلم جاءت خاتمة ومهيمنة على جميع الرسالات السابقة فإن ذلك لا يمنع من التعايش مع من وصلهم الهدي الإلهي عن طريق هؤلاء النبيين. والثالث وهو يتضمن المسالمة العادلة مع الآخرين، ما داموا لا يتورطون في إيذاء المسلمين. فذلك قول الله تعالى: ﴿ **لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي**

الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾. (الممتحنة: ٨)، وقد بسط القول في موضوع (المعايشة) السيد محمد رشيد رضا في تفسير المنار ج ٦ سورة المائدة آية ٥ وهي قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ﴾.

ومجمل القول في التعامل مع غير المسلمين، أنه لا تفريط في عقيدة الإسلام ولا مشادة مع الآخرين في معتقداتهم اللهم في إطار الحوار الكلامي اللاهوتي بين العلماء والمتخصصين إذا لزم الأمر. أما التعايش السلمي المدني فهو ضرورة حياتية لا موجب للتحفظ عليها.

هـ- ونظراً لحساسية مسألة التعايش، فإن رابطة العالم الإسلامي أعَدَّت ورقة عمل لبيان معنى التعايش والتعاون في الأمور المشتركة، تم عرضها في مؤتمر عالمي عقد في جنيف عام ٢٠٠٩م.

ومن المناسب في خاتمة هذا المقال أن أورد بتركيز شديد بعض الأفكار المستخلصة مما سبق ذكره واستيفاؤها ببعض الإضافات والإيضاحات.

عوامل نجاح الحوار بين أتباع الأديان

أولاً: في المجال الديني:

أ- تحاشي الحوار حول المعتقدات الدينية، وقصرها عند اللزوم على العلماء الأثبات من أهل الاختصاص، فإن ذلك أحرى أن يمنع الحساسيات واحتمالات التنازع والخصومة.

ب- عدم المساس بأماكن العبادة والاعتداء عليها. وقد دعا القرآن الكريم إلى ذلك، ذاكراً أماكن العبادة بأسمائها المتعددة مع وصفها بأنها أماكن لذكر الله وتقديسه فقال تعالى في سورة الحج: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ (الحج: ٤٠).

وقد سجل التاريخ أن المحاولات التي تمت لتغيير طبيعة أماكن العبادة لم تأت بخير. ومنها تغيير الجزء الأكبر من مسجد قرطبة في أسبانيا إلى كاتدرائية سنة ١٢٣٨م، وتحويل كنيسة سانت صوفيا إلى مسجد على يد محمد الفاتح في إسطنبول سنة ١٤٥٣م، والمؤلم أن هذه الممارسة الخاطئة لم تسلم منها أماكن العبادة داخل الدين الواحد بحكم وجود الخلافات في التبعيات الدينية للمدارس والفرق والمذاهب.

ج- رفض تعريض الأديان ورموزها الفكرية والقيادية

للتجريح والسخرية كما حصل في نشر الرسوم الكاريكاتورية الرخيصة وتأليف الروايات والقصص التي تجرح الأنبياء. حقاً إن حرية الرأي والتعبير ضرورية، ولكن بشرط أن يكون التعبير صحيحاً وموضوعياً وبأسلوب جدي ومهذب ورصين، وأن تُختار له وسيلة الإعلام أو النشر غير الهابطة.

د- الترحيب بوثيقة (الاحترام المتبادل بين الأديان) التي اقترحها وأصدرها الفريق العربي للحوار الإسلامي النصراني في بيروت سنة ٢٠٠٨م، ودراستها بعناية والنظر في اعتمادها وتبنيها.

ثانياً: في مجال القيم المشتركة:

أ- التأكيد على رعاية الأسرة لكونها الوحدة الأساسية في البناء الاجتماعي، بتشجيع الزواج الطبيعي والتنفير من العلاقات العابرة والشاذة، وصيانة الأسرة من التفكك، وحسن تربية الأطفال، وإشاعة ثقافة البر بالوالدين وذوي القربى وصلة الأرحام، ورعاية المسنين.

ب- التعاون على حماية المجتمع من رذائل التدخين والمسكرات والمخدرات، وتوفير وسائل العلاج للمدمنين، وإصدار التشريعات التي تحول دون إشاعة هذه الآفات.

جـ- إدانة العنف والإرهاب بكل أنواعه ودرجاته ومسبباته، ما وقع منه من قبل القوى المستعمرة والمحتلة لأراضي الآخرين، ومـا يرتكبه الأفـراد. ومناشدة المنظمات الدولية مناصرة الشعوب المعتدى عليها والتي قد يدفعها الاضطهاد إلى المقاومة المشروعة، وحماية السلام بحل الخلافات الدولية بالعدل وعدم التحيز، وعلى أتباع الأديان واجب توجيهي لا تجوز الغفلة عن ضرورته وتأثيره.

د- تشجيع البحث العلمي ضروري لتحسين الحياة وتطوير المجتمعات، بشرط ألا يؤدي البحث إلى اختراع ما قد يؤذي الناس ويشيع الأخطار، أو يفضي إلى الاعتداء على الحياة البشرية وكرامة الخلقة الإنسانية كما في الإجهاض غير المبرر، والاستنساخ البشري، وعبث الهندسة الوراثية.

ثالثاً: في مجال التعايش السلمي المشترك:

أ- دعوة أتباع جميع الأديان، وخاصة حينما تجمعهم بلاد واحدة، إلى التمسك بمتطلبات (المواطنة) من حيث التمتع بصفاتها القانونية، وحقوقها وواجباتها المدنية، والحرص على المؤاخاة الوطنية مع جميع عناصر المجتمع. وفي الممارسات الديمقراطية الصحيحة ما يضمن التساوي في حقوق المواطنة

وواجباتها مع احترام الخصوصيات الدينية والتقاليد المتوازنة لجميع مكونات المجتمع.

ب- دعم التداخل الاجتماعي على الصعيد الأهلي بالمشاركة في الأعمال والمهن، وشؤون المعيشة والحياة، وتحاشي العصبية الفئوية، وحل الخلافات بالتفاهم والحوار بالتي هي أحسن.

جـ- الترفع عن سفاسف الأمور، والانشغال المشترك بالمتطلبات العليا للحياة الكريمة وشؤون التنمية، وعلاج مشكلات الأوبئة والأمراض، والكوارث الطبيعية، والفقر وضعف العدالة الاجتماعية، والفساد الإداري والمالي، والقضاء على الأمية، وإتاحة فرص التعليم للجميع، والحرص على الاستقرار الوطني وتجنب التغيير في أنظمة الحكم بالقوة، والتخلص من الانقسامات الطائفية.

إن ما سبق ذكره هو مجرد إشارات لا يمكن الادعاء بأنها جامعة مانعة. ولكنها تتيح الفرصة لاستمرار المدارسة لتحقيق الهدف الأسمى من لقاء أتباع الأديان، وتقاربهم، وتعايشهم، وإيثارهم الوفاق على الخلاف، وحل ما يواجههم كبيراً كان أو صغيراً، سياسياً اتصف أو قانونياً أو اجتماعياً أو غير ذلك، بالحوار لا الصدام، والتفاهم لا المخاصمة.

العلاقات الإسلامية النصرانية اليهودية في ضوء المبادرة السعودية للحوار

إدوارد كيسلر *

ما زلت أذكر السادس عشر من يوليو من عام ٢٠٠٨، ففي ذلك اليوم التاريخي افتتح الملك عبدالله بن عبدالعزيز المؤتمر العالمي للحوار في العاصمة الأسبانية مدريد بحضور الملك خوان كارلوس ورئيس الوزراء الإسباني، إضافة إلى بعض الشخصيات المرموقة.

ولا شك أن قيام الملك نفسه بافتتاح هذا المؤتمر ومقابلته شخصياً للمشاركين الذين بلغ عددهم مائتي شخص، وبحضور

* من المفكرين الرائدين في مجال الحوار بين الأديان، وعلى وجه الخصوص في موضوع العلاقات المعاصرة بين اليهود والنصارى، وبين اليهود والمسلمين. مؤسس معهد وولف للديانات الإبراهيمية Woolf Institute of Abrahamic Faiths ، وزميل كلية سانت ادموند St Edmund›s College ، كيمبردج. ألف وحرر عشرة كتب، من بينها: (مقدمة في العلاقات اليهودية النصرانية An Introduction to Jewish-Christian Relations)، و: (ماذا يعتقد اليهود؟ What do Jews Believe?). (**بريطانيا**) .

عدد من كبار المسؤولين السعوديين، يُظهر أن الملك عبدالله بن عبد العزيز يضع العلاقة بين الأديان على رأس أولوياته.

وفيما يتعلق بالعلاقة بين أتباع الأديان، هناك العديد من المبادرات السابقة، منها - على سبيل المثال - مبادرات أردنية برعاية الملك عبدالله بن الحسين، والجهود المضنية للأمير الحسن، علاوة على تلك الجهود التي قام بها المسلمون البريطانيون مثل أمينة أحمد، مديرة مركز دراسات العلاقات الإسلامية اليهودية في كمبريدج، ومشرّف حسين، الرئيس المشارك للمنتدى الإسلامي النصراني.

وحقيقة القول ينبغي علينا الإقرار بأهمية قيام الملك عبدالله بالدعوة للحوار بين المسلمين وغير المسلمين. ففي خطابه الافتتاحي لمؤتمر مدريد للحوار بين أتباع الأديان، قال الملك: (إن حكمة الله سبحانه اقتضت أن يختلف الناس في أديانهم، ولو شاء لجمع البشر على دين واحد، ونحن نجتمع اليوم لنؤكد أن الأديان التي أرادها الله لإسعاد البشر يجب أن تكون وسيلة لسعادتهم. لذلك علينا أن نعلن للعالم أن الاختلاف لا ينبغي أن يؤدي إلى النزاع والصراع، ونقول: إن المآسي التي مرت في تاريخ البشر لم تكن بسبب الأديان، ولكن

بسبب التطرف الذي ابتلي به بعض أتباع كل دين سماوي، وكل عقيدة سياسية).

ولعل ما أضاف إلى أهمية هذا المؤتمر أن المشاركين لم يكونوا من اليهود والنصارى والمسلمين فقط، بل وُجّهت الدعوة أيضاً للهندوس، والسيخ، والبوذيين، بالرغم من أن بعض المذاهب الإسلامية لا تنظر للمعتقدات الشرقية على أنها أديان ولكنها ثقافات، وهي نظرة تنزع من هذه المعتقدات قيمها الروحية.

وبالطبع فإن المبادرة السعودية ستعزز من جهود بعض المسلمين الناشطين في ميدان الحوار وتمنحهم الثقة للقيام بالمزيد من الخطوات التي تهدف إلى إقامة علاقات أفضل مع غير المسلمين، وستشجع بعض المسلمين، الذين لم ينخرطوا بعد في الحوار مع أتباع الأديان، للقيام بذلك.

لقد كشفت المبادرة السعودية للحوار أن المسلمين- خصوصاً في منطقة الشرق الأوسط- مقتنعون بضرورة الحوار، حتى ولو (لإزالة الشكوك المتعلقة بالإسلام والمسلمين)، كما عبّر عن ذلك الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي وهو يتحدث عن الحوار. ولكن لكي يحدث هذا ينبغي أن تكون هناك زيادة في التفاهم المشترك.

ومن خلال تجربتي مشاركاً وناشطاً وأكاديمياً في الحوار بين أتباع الأديان خلال الخمسة عشر عاماً المنصرمة، فإنني أدرك أن الحوار الحقيقي يكون بالاجتماع المباشر بين الأطراف المعنية بالحوار، والتحدث مع الآخر بكل احترام، وهذا ليس بالأمر السهل لأنه ليس مجرد أمر متعلق بالآخر، أو: أين يختلف عنا الآخر، إذ يتطلب الحوار أيضاً احتراماً يأخذ الآخر بالجدية التي يتوقع الآخر أن يعامل بها، وهذا أمر عسير جداً.

وبالنسبة لليهود فإن أسس الحـوار قد وردت في (سفر اللاويين) ١٩: ٣٣-٣٤:

(إذا نزل غريب بأرضكم فلا تسيئوا معاملته. يجب أن يعامل الغريب الذي يعيش معكم كمواطن. أحبوه كما تحبون أنفسكم فإنكم غرباء في أرض مصر. أنا الإله ربكم).

إن أهمية حب الغريب قد تم التأكيد عليها من خلال ٣٦ موضعاً في التوراة. إن فهم الآخر يعتمد على الإقرار بالاختلاف، وبعبارة أخرى ينبغي أن يكون هناك قبول لتفهم هذا الاختلاف من أجل معرفة الآخر.

ويؤكد مارتن بوبر (Martin Buber ١٨٧٨ -١٩٦٥م) الذي يعدّ رائد الحوار في العصر الحديث، من خلال كتابه

(أنا وأنت I-thou) أن نجاح الحوار مع الآخر يقوم على التقاء طرفين واحترام كل طرف منهما للآخر، وعدم التقليل من شأن الآخر.

أمـا إمانويل ليفيناس Emmanuel Levinas (١٩٠٦ - ١٩٩٥م)، الذي تأثر كثيراً بأفكار مارتن بوبر، فيعدّ أكثر اليهود المحدثين إسهاماً في مجال الحوار. وذهب إلى القول: إن العلاقة مع الآخر ليست العلاقة المثالية للطائفة، أو التعاطف الـذي من خلاله نضع أنفسنا في مكان الآخـر، بل إن هذه العلاقة بمثابة أن الآخر هو نظيرنا. ويقول: إن النظرة للآخر تحتاج إلى التزام أخلاقي، وإنه عندما ينظر كل شخص إلى الآخر، فلا يرى كل منهما وجه الآخر فقط، بل وجوه الآخرين، أي وجه الإنسانية.

الحوار الإسلامي اليهودي:

إن المسلمين واليهود لديهم تجربة مشتركة كونهم أقليات دينية في أوروبا، فهم نظراً لذلك يتشاركون خبرات واحتياجات متشابهة، غير أن إخفاق الطرفين في التعامل مع تأثيرات الصراع في الشرق الأوسط ، قد ألقى بظلال على العلاقة بينهم.

إن فهم ما وراء هذا الإخفاق يعدُّ أمـراً أساسياً في نجاح الحوار الإسلامي اليهودي في المستقبل، ولكن ينبغي أن تكون هناك مواجهة حقيقية لمعالجة الخلافات الحـادة، فمعظم اليهود يعتقدون أن إنشاء دولـة إسرائيل هو وعد قديم قد تحقق، متمثلاً في تجميع المنفيين، وتأسيس دولة لها مقوماتها، وضمان الأمن المادي والروحي. ولكن بالنسبة لمعظم المسلمين، فإن الوجود الدائم للدولة اليهودية في منطقة الشرق الأوسط يمثّل خرقاً دينياً وسياسياً. وبالنسبة لليهود - أيضاً - فإن قيام دولة إسرائيل هو نوع من الحرية القومية بعد نحو ألفي عام من الضعف والتشرد. أما بالنسبة للمسلمين فإن قيام دولة إسرائيل يعدّ بمثابة (النكبة)، إذ تم اقتلاع مجتمع إسلامي من جذوره، وأصبح أقلية في بلاد كانت تعدُّ (دار الإسلام)، ومعظم اليهود لا يفصلون الصهيونية من الجذور الدينية العميقة لليهودية، ولكن معظم المسلمين يفرقون بين الصهيونية واليهودية، ولا يعترفون بالصهيونية كجزء لا يتجزأ من اليهودية، بل ينظرون لها كأيديولوجية (عنصرية).

ومـن بين الأمـور التي أدت إلـى فشل الحـوار بين المسلمين واليهود افتقار كل طـرف بمعرفة الطرف الآخـر، مما جعل

أعمالاً مثل التي تقوم بها معاهد أكاديمية صغيرة، مثل مركز كمبريدج لدراسة العلاقات الإسلامية اليهودية Cambridge Centre for the Study of Muslim-Jewish Relations، من المراكز المهمة لتعزيز التفاهم بين المسلمين واليهود، وتعمل أيضاً على القضاء على الاتجاهات المناهضة للسامية وتلك المتعلقة بالخوف من الإسلام Islamphobia.

فعلى سبيل المثال قام علماء مسلمون من مركز دراسة العلاقات الإسلامية النصرانية عام ٢٠٠٨م بإعداد ونشر أول خطاب مفتوح من نوعه في العصر الحديث يوجه من زعماء مسلمين إلى الجالية اليهودية منادين بالسلام والتفاهم. يُذكر أن الخطاب المشار إليه قد أعدته كل من الدكتورة أمينة أحمد Amineh Ahmed Hoti ، والشيخ مايكل مومسا Michael Mumisa. ويعد الخطاب دعوة إلى العمل الإيجابي البناء الذي يهدف إلى تحسين العلاقات بين المسلمين واليهود.

وتحدث طارق رمضان، وهو أحد الموقعين على الخطاب، عن أهمية هذا الخطاب بقوله: (أعتقد حقيقة أن هذا الخطاب إشارة ودعوة لنا للدخول في حوار... ونحن بحاجة إلى أكثر من (التسامح) المتمثّل في قولك (يمكنني أن أعيش معك، ولكنني

أتمنى أن لا تكون هنا)، إلى المعرفة والاحترام المشترك). ووصف الحوار مع اليهود بأنه (مخاطرة ولكنه ضرورة).

وقد نوّه الخطاب بالحقب والأماكن التي عاش فيها المسلمون واليهود، وبالتعاون الملحوظ والتلاقح بين مجتمع الديانتين. ولكن معظم هذا الوضع قد طغت عليه أو اختطفته السياسات الحديثة.

لكن كيف يمضي المسلمون واليهود قُدماً في الحوار؟ إن تأسيس الثقة المشتركة والاحترام المتبادل يتم خطوة خطوة، فعلى سبيل المثال يمكن أن تكون هناك زيارات متبادلة منتظمة للأديرة والمساجد، ووضع استراتيجيات لموضوعات مثل التمييز العنصري، كذلك دعم محاولة كل طرف الحفاظ على هويته الدينية في مجتمع يشجع السير وفق ثقافة الغالبية.

وإذا كانت التحديات التي تواجه الحوار الإسلامي اليهودي تبدو شائكة، فعلينا النظر في التقدم الكبير الذي حدث في العلاقات النصرانية اليهودية في المائة عام الماضية. ومن المؤكد أن هناك أخباراً إيجابية تبرز في عالم اليوم فيما يتعلق بالمواجهة بين الأديان، والحوار النصراني اليهودي، بالرغم من الخلافات الدينية العميقة وقرون عديدة من العزلة وانعدام الثقة. لكن

حقيقة قيام النصارى واليهود ببناء نوع من الثقة والتفاهم المتبادل، لا يعني بالطبع أن هذا النموذج يمكن تطبيقه بالكامل على العلاقات بين المسلمين واليهود والحصول على نفس النتائج الإيجابية. فالمسلمون واليهود اليوم يعيشون ذكريات وأحداثاً قديمة وقضايا تاريخية متشعبة تختلف عن تلك التي يحملها النصارى واليهود فيما يتعلق بعلاقتهم بعضهم ببعض. وبينما كان هناك ما يقرب من قرن من الزمان من الحوار النصراني اليهودي المثمر، فإن بناء علاقات إسلامية يهودية إيجابية ما تزال في مراحلها الأولى وتمثل تحدياً جديداً.

يجب علينا أن نعمل على التقارب، وهي الخطوة التي ستنقلنا من حالة الازدراء إلى الاعتراف، حيث نرى الآخر كمخلوق خلقه وصوّره الله، والتحول كذلك إلى علاقة احترام تسمى الحوار.

ففي بريطانيا – على سبيل المثال- هناك عدد من الذين اعتنقوا الإسلام أصبحوا ناشطين وسط المسلمين البريطانيين. ومن هؤلاء الشيخ عبد الله، أو هنري وليام كويليام Henry William Quilliam ، الذي كان فاعلاً في تأسيس الجالية المسلمة وتنظيمها في مدينة ليفربول Liverpool في تسعينيات

القرن التاسع عشر. واليـوم فـإن تيم ونـتر Tim Winter، المعروف أيضاً باسم عبد الحكيم مـراد، أستاذ الدراسات الإسـلامية بجامعة كمبريدج، يعد من الأصوات التي لها وزنها في بريطانيا. ففي حديث له مع طلاب مركز كمبريدج لدراسة العلاقات الإسلامية اليهودية في مسجد كمبريدج عام ٢٠٠٧م، أشار إلـى بعض الجوانب حول الوضع الحاضر للمسلمين في بريطانيا:

- المدارس الدينية تدرِّس مناهج بالية، وتختلف عن تلك التي تدرَّس عن البلدان مصدر هذه المناهج.
- المشكلة الرئيسة وسط الجاليات هي الاختلافات بين الأجيال وإشكالية نقل القيم والثقافة الإسلامية للأطفال.
- الانشقاقات الدينية تحـدث نتيجة للهويات العرقية وليس لعلاقات مرتبطة بأمور ذات علاقة بمتطلبات العصر الحديث.
- الشعور بنوع من الهوية المشتركة لدى المسلمين في محيط مادي ومعادٍ.

هـذه الجوانب مألوفة لليهودي الـذي يعيش في بريطانيا. فكونهم أقليات، فإن كلاًّ من اليهود والمسلمين قد واجهوا نوعاً

من التمييز في المجتمع البريطاني وعاشوا صعوبات الاندماج. ويشترك كل من اليهود والمسلمين البريطانيين في ظاهرة القلق حول تعليم أبنائهم، وكذلك في الأمور ذات العلاقة بالفوارق بين الأجيال، علاوة على القلق من بروز التوجهات العنصرية في المجتمع. ولدى كل من المسلمين واليهود أيضاً نفس المخاوف ونقاط الضعف وربما ولأول مرة في التاريخ، يكون كل من المسلمين واليهود أقليات في بلد واحد. لكن في الوقت الحاضر، فإن المسلمين في بريطانيا أكثر تعرضاً للسلوكيات والتصرفات المعادية مقارنة بتعرض اليهود لهذه السلوكيات والتصرفات.

ولليهود أيضاً جانب مشترك مع المسلمين وبعض الأقليات الأخرى، فيما يتعلق بالعلاقة مع أوروبا، وهي أمور ينبغي أن توجد لها الحلول. ويمكن أن يوفر البعد الأوروبي في هذا الموضوع إطاراً يجد خلاله كل من المسلمين واليهود طرقاً لكي يتعايشوا مع أنفسهم ويحققوا رغباتهم في التميز. فعلى سبيل المثال، يرى طارق رمضان تكوين ما يسمى بـ (الإسلام الأوروبي) على نهج (اليهودية الأوروبية) التي يتطلع بعض اليهود لتأسيسها، ويرى أنها أمر أساس لاندماج المسلمين في المجتمعات الأوروبية بطريقة لا يتم معها التخلي عن جوانب الإسلام الأساسية.

وللاقتراب أكثر وبصورة أكثر تحديداً من وجهة النظر اليهودية، نرى أن على اليهود الإقرار بالتناقض العميق في عالم اليهودية حول طبيعة الحوار وإمكاناته. وإلى حد كبير يعد هذا الأمر مفهوماً من حيث التجارب اليهودية في ظل الإسلام والنصرانية على مر القرون. ولا يحتاج المرء هنا تقديم سرد مفصل عن مصير الجاليات اليهودية على أيدي النصارى وما عانوه من مذابح، واعتناق النصرانية بالإكراه، والطرد، والاتهام، بالقتل، وتدمير مجتمعات بأكملها، والعزل ومحاكم التفتيش، والحرق العلني للكتابات اليهودية المقدسة، وأهوال المحرقة التي حدثت في أوروبا النصرانية في القرن الماضي.

وبالمقارنة فإن معاملة اليهود تحت الحكم الإسلامي كانت أفضل بكثير، بالرغم من بعض التجارب المريرة التي حدثت من بعض الأنظمة والمتمثلة في انتهاك وضع اليهود كأهل ذمة.

أما الجانب الإيجابي فهو أنه من الواضح أيضاً أن الكثير من الأمور المحورية بالنسبة للفكر والتجارب اليهودية، قد نهضت خلال نفس العقود التي مرت بها الأحداث التي أشرنا إليها، وأن هذا الفكر والتجارب قد تأثرت بصورة عميقة بالعيش بين المسلمين والنصارى، بالتشرّب الانتقائي للأفكار والقيم

المحيطة، وكذلك عبر إسهامات ثقافة البلد المضيف. وظل هناك، على مر هذه الحقب، تلازم بين الصراع والتعايش.

ومن المهم اليوم الإشارة إلى بُعد آخر في الوجود اليهودي، يؤثر على فكرة الحوار بين أتباع الأديان. فاليهودية هي ديانة شعب محدّد، وتتداخل مسألتا العرق والهوية بعضهما مع بعضٍ في هذا الجانب. فعلى سبيل المثال من الصعوبة فصل الحوار بين أتباع الأديان، كممارسة دينية صرفة، عن مجمل الأبعاد السياسية. وإذا كان الصراع الإسرائيلي الفلسطيني يُهيمن على هذه المسائل، فالآثار الاجتماعية الأوروبية الداخلية الناجمة عن هذا الوضع ليست أقل شأناً، إذ إن الديانات الثلاث تسعى لإيجاد هويتها، ودورها، وحتى أمنها في مجتمع يجنح أحياناً وبكل قوة، نحو العلمانية. فشبح معاداة السامية ما يزال يطارد الجاليات اليهودية في أوربا، والخوف من الإسلام (إسلاموفوبيا Islamophobia)، الناتج عن المخاوف التي خلفتها العمليات الإرهابية، قد وضع الجاليات الإسلامية في خطر بالغ. وفي مثل هذه الظروف والأحوال فإن الحوار بين الأديان يحتاج إلى بعد إضافي من الدعم والتضامن المشترك.

ولعل أكثر الجوانب أهمية في العلاقات اليهودية النصرانية في العقود الأخيرة، تتمثل في الوثائق والإجـراءات الخاصة بالكنائس، من حيث التصالح مع المحرقة اليهودية، وفشل الكنيسة في اتخاذ موقف من الحل النهائي Final Solution (برنامج إبادة النازيين لليهود في ظل هتلر)، ناهيك عن تواطؤ النصارى في القيام بهذه المحرقة. أما التغيير البارز فقد حدث يوم ٢٨ أكتوبر ١٩٦٥م عندما نُشر مرسوم مجلس الفاتيكان الثاني حول أتباع الأديان غير النصرانية، والذي غيّر من تعاليم الازدراء التقليدية ضد اليهودي واليهودية.

وقد وجدت عملية إعادة تقويم التعاليم النصرانية الأساسية حول اليهود واليهودية، طريقها تدريجياً إلى الكنائس. وأثمرت جهود منظمات محلية وعالمية، مثل مجلس النصارى واليهود، ومشاريع الحوار الأخرى، التي شملت أيضاً مسلمين وأتباع ديانات أخرى، أثمرت في التخفيف التدريجي من حالات الشكوك وإلى نوع من تطبيع العلاقات. وفي سبتمبر من عام ٢٠٠٠م تم نشر بيان ((قول الحقيقة Dabru Emet) حول العلاقة بين اليهودية والنصرانية، الذي جاء ردّاً على مرسوم الفاتيكان حول اليهود واليهودية.

ومـن المهم الإشـارة إلـى المزيد من البيانات التي تتناول العلاقات الإسلامية اليهودية، مثل بيان (الدعوة للحوار Call to Dialogue).

ونـظـراً لوضعها كديانة أقلية بين المجتمعات الإسلامية والنصرانية، فقد أخـذت اليهودية مـن مجتمع الديانتين، وأسهمت فيهما، في الوقت الذي احتفظت بهويتها الفريدة. وقد كان أحد تأثيرات هذا التفاعل والتواصل التاريخي، الكشف عن أن اليهود يمكن أن يدخلوا بسهولة في حوار مع الديانتين كلٍّ على حدة، حيث يتم اكتشاف قواسم مشتركة مهمة.

وفي الـوقت نفسه، فـإن النصارى واليـهـود يشتركون في النصوص الدينية، أي الإنجيل، أو «العهد القديم»، مع اختلاف في بعض النظم والأعراف النصرانية. لكن الإصرار اليهودي على النص العبري ومعرفة النصارى الواسعة بالترجمة الدارجة، تمنح انطباعاً خاطئاً في بعض الأحيان أن هذا الكتاب الذي يُقرأ ليس واحداً.

وينبغي الإشارة هنا إلى الإضافات النصرانية على (العهد الجديد)، وإلـى حقبة ألفي عام من الانفصال عن التعاليم الدينية. وحتى في هذه الحالة الأخيرة، فقد كانت هناك أوقات

حصل فيها التواصل عبر القرون، منها رجوع النصارى للمعلمين اليهود من أجل الاطلاع على النصوص العبرية، وكذلك تأثر اليهود بمناهج البحث النصرانية المعاصرة، وذلك عادة بسبب الحاجة إلى الدفاع عن الوضع اليهودي فيما يتعلق بأنظمة مناهج البحث العقدية المعاصرة.

ويقدم الإنجيل لكل من اليهود والنصارى الآليات لفتح نقاش وحوار مشترك، كما أوضحتُ ذلك في كتابي: (Bound by the Bible) الصادر عن مطبعة جامعة كمبريدج ٢٠٠٤م. لكن، وفوق هذا كله، فإن اليهود مثل النصارى، قد عايشوا الاضطرابات الدينية التي أعقبت عصر التنوير، وهي التحديات التاريخية الكبرى التي واجهت النصوص الإنجيلية والدينية ذات العلاقة، وانحسار السلطة من المؤسسات الدينية، إضافة إلى نزعة الفردية والعلمانية التي يتسم بها المجتمع الغربي.

أما فيما يخص العلاقة مع المسلمين، فإن اليهود يشتركون معهم في المفردات اللغوية الغنية، نظراً للتشابه بين اللغتين العبرية والعربية، إضافة إلى أن الفلسفة اليهودية في القرون الوسطى قد تطورت في وسط إسلامي. أما الشعر اليهودي

الديني والدنيوي في القرون الوسطى فقد كان ناتجاً عن الاتصال والتأثر المباشر بالشعر العربي. ولكن الأمر الأكثر أهمية هو أن اليهودية، في شكلها الكلاسيكي، مثلها مثل الإسلام، تستند إلى نظام، وهو النظام الذي يشمل جوانب الحياة كلّها الخاصة والعامة. وعليه فإن الدين والسياسة أمران لا يمكن فصلهما عند النظرة إلى هذا الكون، مما يعني أن اليهودية والإسلام في هذا الإطار ليستا ديانتين فقط وإنما هما (منهج حياة). ويمكن الإشارة إلى أن المسائل المتعلقة بالتعاملات اليومية في الحياة مثل نظام الغذاء والأنظمة المتعلقة بالزواج والطلاق والأسباب التي تدعو للدخول في الحروب، تعتبر متشابهة في كلتا الديانتين.

وفي هذا الإطار يمكن القول: إن اليهودية تقف في منطقة وسطى بين الإسلام والنصرانية، تسلط الضوء على كل واحدة منهما، وهذا الوضع يشبه ذاك الذي لعبه اليهود في القرون الوسطى عندما قاموا بدور المترجمين للنصوص الإسلامية الفلسفية، والدينية والعلمية، من اللغة العربية إلى اللغة العبرية، ومن ثم من العبرية إلى اللاتينية. ومن هذا المنظور فإن اليهودية يمكن أن تلعب دور الوسيط في الحوار الصعب بين

النصرانية والإسلام وبين الغرب والشرق، وهو حوار يكتسب اليوم أهمية كبرى.

وبالرغم من أن الصراع في الشرق الأوسط يجعل المهمة أكثر صعوبة، يبقى هناك أمل، فما دمنا قد حددنا الموقف تجاه بعضنا في الماضي على أساس المعارضة والتميز بعضنا عن بعض، فاليوم يمكن أن نحدد موقفنا وفق علاقتنا بعضنا مع بعضٍ.

الحوار بين أتباع الأديان في الدنمارك

عبدالواحد بيدرسين*

ولدت لعائلة دنماركية نصرانية، وبالرغم من أن والـديَّ لا يمارسان الطقوس النصرانية المتمثلة في الذهاب للكنيسة كل أسبوع، لكن لم يساورني الشك في أنني جزء من عائلة نصرانية.

كـان جـدي لأبـي قـارع أجـراس في إحـدى كنائس القرى الدنماركية، وكنت أذهـب معه في بعض الأحيان لأقـوم بقرع أجراس الكنيسة. ويبدو أنني الآن إمام المسجد الوحيد - أو على الأقل واحد من بين قلائل في العالم - الذي ساعد في قرع أجراس كنيسة عندما كان طفلاً.

وعندما بلغت السادسة عشرة من عمري بدأت أتساءل

* مدير العلاقات الخارجية للمجلس الإسلامي في الدنمارك، وأمين عام العون الإسلامي في الدنمارك. مؤسس مشارك ورئيس سابق لثلاث مدارس إسلامية خاصة في مدينة كوبنهاجن. مترجم لعدد من الكتب عن الإسلام للغة الدنماركية، ناشط في مجال الدعوة، وإمام وخطيب للجمع والأعياد منذ عام ١٩٩٧م، مشارك في العديد من الحوارات في الدنمارك وحول العالم في الموضوعات المتعلقة بالدين والتعايش السلمي. (**الدنمارك**).

عن مكونات ديني، والتي هي عبارة عن الثقافة الشبابية التي ترعرعت عليها. فقد كنت أكّدت نصرانيتي عندما بلغت الرابعة عشرة، وهو تقليد شائع في هذا الجزء من العالم. لكن هذه المرحلة كانت مليئة بالتساؤلات الكبيرة عن الحياة:

من أين أتيت؟ وكيف أسير؟

وهل هناك إله؟

وهل للحياة معنى؟

كل هذه الأسئلة وغيرها جعلتني أتخلى عن الكنيسة الدنماركية وأنا في السادسة عشر من عمري. ولم يكن ذلك بسبب صراع مع الكنيسة، ولكن لإدراكي أن عليّ أن أبحث عن طريق لي في هذه الحياة، وأن الدين ليس شيئاً يورث من الوالدين أو المجتمع، لكنه شيء يجب أن تجده بنفسك.

مضت عدة سنوات ولم يكن لديّ أي دين يربطني، فبدأت أدرس مختلف الكتب عن الأديان والفلسفات. وعندما بلغت الحادية والعشرين من عمري بدأت السفر حول العالم، وبقيت في حالة سفر لأربع سنوات، كانت بداياتها لأفريقيا، وأمضيت الثلاث سنوات الأخيرة في زيارات لدول في قارة آسيا. كانت هذه الأسفار الطويلة جزءاً من تطويري الذاتي، إذ إنه خلال هذه الأسفار التقيت بأناس من مختلف الديانات والثقافات،

ولدهشتي الكبيرة ولكوني من بلد أوربي غني فقد التقيت أيضاً بالكثير من الناس الذين يعيشون حياة فقر، لكنهم مع ذلك راضون بحياتهم.

هذا الواقع جعلني أفكر وأدرك أن ما يجعل هؤلاء الفقراء راضين عن حالهم هو الدين، ليس الدين كفلسفة ولكن الدين كمنهج للحياة. ولذا قررت أن أبدأ في ممارسة الشعائر الدينية لرغبتي في أن أشعر أيضاً بذاك الرضا الذي يشعر به أولئك الذين التقيتهم.

في ذلك الوقت كان تفكيري أنه يجب أن تكون جميع الأديان نابعة من مصدر واحد، وأن سبب الاختلاف بين أتباع هذه الأديان أنهم حرفوا فيها. وأن هذا التحريف حدث عن طريق حذف بعض الأجزاء من كتب تلك الديانات، وفي بعض الأحيان بإضافة أجزاء إليها. هذا الوضع جعلني أعتنق الهندوسية.

استمر اعتناقي للهندوسية لسنوات كنت خلالها أذهب حاجاً للأماكن المقدسة في الهند، وأركع للتماثيل بمختلف أنواعها. وعندما رجعت للدنمارك كنت ما زلت متمسكاً بالهندوسية التي كنت أعبد فيها عدداً من «الآلهة من الذكور والإناث». بقيت على هذه الحال قرابة عامين آخرين. ثم ، وأنا في السابعة والعشرين من عمري، اكتشفت أنني أسير في الطريق الخاطئ، واستولى

عليّ شعور أن هناك إلهاً واحداً في هذا الكون ، وأنه يجب عليّ أن أبحث وأتحول لعبادة إله واحد لا يُرى.

بعد نحو عام انتهى بي الحال إلى شقة في مدينة كوبنهاجن يقطنها ثلاثة من المسلمين الأوربيين، أحدهما دنماركي، والآخر نرويجي، أما الثالث فكان إنجليزياً. وفي الليلة الأولى التي أقضيها معهم استيقظت على صوت النداء للصلاة وكانت الساعة تشير إلى الثالثة صباحاً. وعندما شاهدت هؤلاء الثلاثة ينهضون للصلاة، عقدت لساني الدهشة، وفي الوقت نفسه شعرت بالخجل، إذ إنني كنت أريد منذ مدة طويلة أن أصلي، لكنني كنت دائماً أعبد الله في أوقات فراغي بعد أن انتهي من جميع رغباتي ولذاتي. في هذه اللحظة وجدت نفسي وجهاً لوجه أمام أناس ينهضون من فراشهم لأداء الصلاة في وقت يكون فيه الفراش مكانًا مغرياً للنوم والراحة. أديت معهم الصلاة في ذلك الصباح وبدأنا نتحدث عن الدين، وأثناء ذلك بدا واضحاً لي أن بحثي الطويل الذي بدأ منذ اثني عشر عاماً قد وصل إلى نهايته. وبعد أيام قلائل أعلنت إسلامي وأصبحت حياتي تسير وفقاً لمنهج حياة النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

قد يتساءل القارئ الآن:

لماذا سردت هذه القصة؟

لقد أوردت هذه القصة لأبين لكل من يقرأ هذه المقالة في الشرق أو الغرب كيف أن حياة الفرد يمكن أن تمثّل حواراً بين مختلف الأديان، حتى وإن بدأ ذلك من خلال ثقافة دينية أحادية. وحيث إنني خضت تجربة العيش وسط ديانتين قبل أن أعتنق الإسلام، فإنه سيبدو من المدهش جداً ألا أنخرط في الحوار بين الأديان وطرح خبرتي الواسعة في هذا المجال. ذلك أنه ومنذ سنوات شبابي الأولى أتيحت لي فرصة السفر إلى شتى بقاع العالم وتكوين صداقات في جميع المناطق التي زرتها. ولأنني زرت قرابة مائة دولة وأقمت في بعضها وقتًا طويلاً، تكوّن لدي شعور قوي أنني أنتمي للعالم كله وليس للدنمارك موطني. ولأن لديّ صداقات مع أناس من مختلف الأديان، فقد أصبح العالم بالنسبة لي مكانًا مفيداً للسفر من عام لآخر. لقد شاركت في مؤتمرات عديدة حول الحوار بين الأديان نظمها أناس من جميع الأديان، واستفدت كثيراً من هذه اللقاءات، ليس من خلال الحضور والاستماع للمتحدثين والحديث في هذه المؤتمرات والالتقاء بالمشاركين في هذه المناسبات، ولكن من خلال أخذي لأفكار جديدة معي للدنمارك، وكذلك تبادل خبراتنا مع أناس من مختلف أنحاء العالم.

وفي وضعنا نحن كأقلية دينية في الدنمارك فإنه من المهم أن نحافظ على علاقات طيبة ودائمة مع المنتمين للديانات الأخرى، وعلى وجه الخصوص النصرانية التي تعدُّ الديانة الرئيسة في الدنمارك.

لم يعد معظم الدنماركيين يفكرون في ما إن كان يجب أن يكون هناك حوار بين أتباع الأديان في المجتمع أم لا. فمثل هذا الحوار استمر لسنوات مضت، وبقي السؤال المطروح الآن في الدنمارك هو:

ما القدر الذي يمكن أن نتشارك فيه؟ وما الجوانب التي تشاركنا فيها في الأصل؟

في العام ١٩٩٥م أُتخذت أولى الخطوات في طريق تأسيس مركز إسلامي- نصراني مشترك في العاصمة الدنماركية كوبنهاجن. لقد كنت أحد المؤسسين لهذا المركز الذي يُعدّ حتى الآن أهم المؤسسات التي تُعنى بالحوار، وهو الوحيد في الدنمارك وربما في القارة الأوربية كلها، إذ إنه تأسس عن طريق التعاون بين مجموعة من المسلمين المخلصين ومجموعة من النصارى المخلصين أيضاً، الذين رأوا أن تتوج اجتماعاتهم المثمرة بتأسيس هذا المركز.

تأسس المركز في بادئ الأمر في منطقة جاذبة في العاصمة

كوبنهاجن، وأقيمت فيه حوارات علنية كثيرة، رغم أن المجموعات المشاركة كانت صغيرة لا يتعدى عددها عشرة أشخاص من المسلمين والنصارى كانوا يلتقون عدة مرات في السنة. وكانت كل مجموعة تحدد موضوعاً للنقاش أو الحوار؛ وأثمرت هذه الحوارات والاجتماعات عن اكتشاف الكثير من الأمور المشتركة بين الطائفتين.

لقد تبين للمشاركين في هذه الحوارات أن هناك الكثير الذي يجمع بينها، الشوق العميق لإرضاء الله هو نفسه في قلوب جميع المؤمنين على اختلاف دياناتهم، وإذا أدركنا ذلك سنجد أنفسنا مشتركين في أمور كثيرة عكس ما يتراءى لنا عند النظرة الأولى.

بعد نحو عشر سنوات من ممارسة المركز لنشاطاته ، أصبح من الصعب أن يستمر في المكان نفسه. فالمسلمون الذين كانوا نشطاء في المركز قاموا بتأسيس مركز خاص بهم في نفس المنطقة من المدينة، وهو أول مركز إسلامي دنماركي تُقام فيه الدروس وخطب الجمعة باللغة الدنماركية. ولما كان هناك مكتب شاغر في هذا المركز تم نقل المركز الإسلامي المسيحي إلى هذا المكتب ليكون ضمن المركز الإسلامي.

لم يكن تأسيس هذا المركز بداية الحوار بين الأديان في الدنمارك، لكن كانت هي المرة الأولى التي يصبح العمل فيها مؤسسياً. وحقيقة القول: إن كل المشاركين في حوارات المركز

يفخرون بدينهم، وهي صفة تلازمنا ونحن على طاولات الحوار؛ ولا غبار في ذلك، إذ ينبغي علينا أن نكون منفتحين وأمينين حول حبنا لديننا. وأعتبر نفسي مسلماً غير مخلص إذا لم أرغب في أن يرى غير المسلمين جمال الإسلام، ويقوم تبعاً لذلك بقبوله بكامل إرادته وحريته. وأعتقد أن معارفي من النصارى في مركز الحوار يحملون الشعور نفسه كنصارى. فهم ينظرون للنصرانية على أنها الدين الحق، كما أرى أنا الإسلام، وإذا لم يكونوا راغبين في تحولي نحو النصرانية فسيكون هذا مؤشر على أنهم لا يعيرونني انتباهاً واهتماماً، وهنا تأتي أهمية الحوار.

وبديهي أن أي مسلم أو نصراني أو يهودي أو هندوسي أو بوذي يحمل شعوراً أن معتقده هو الحق، وأن المعتقدات الأخرى ليست كذلك. ومن أجل ذلك فهناك بعضٌ من القواعد التي ينبغي مراعاتها. فمنها أن نفهم أولاً أن الحوار يختلف تماماً عن المحادثات. ففي المحادثات هناك دائماً توقعات بالتوصل إلى نتائج، أو اتفاقية أو تسوية ما. أما في الحوار فإن هذا ليس بالضرورة ما يتوقعه المتحاورون، إذ إن الحوار بكل بساطة يهدف إلى بث آفاق جديدة في أذهان المشاركين.

وبالنسبة لي شخصياً أجده حقاً أمراً ملهماً عند الجلوس مع أشخاص ينتمون لمختلف الأديان، ومحاولة فهم ما يحملونه

من أفكار ورؤى لما وجدوه في ديانتهم، وأن أتبادل معهم الأفكار والرؤى الخاصة بديني.

في الدنمارك يعدُّ المسلمون أقلية، وليس لهم أي تأثير أو نفوذ سياسي. والإسلام يحظى بالنقاش في وسائل الإعلام بصورة تكاد تكون منتظمة ، ولكن غالباً ما يكون غير المسلمين هم الذين يناقشون الموضوعات المتعلقة بالإسلام. وفي الغالب عندما يشارك المسلمون في النقاش العام حول الإسلام يكون ذلك على سبيل الدفاع أو الرد عما يُقال حول الإسلام أو المسلمين. ورأيي المتواضع هو أن نكون مشاركين فاعلين في المجتمع، وهذا يتم فقط إذا ما أقمنا علاقات جيدة مع معتنقي الديانات الأخرى في المجتمع.

وعندما نلتقي بآخرين يعتنقون ديانات أخرى فإن الأمر يبدو في بعض الأحيان بمثابة تحدٍ كبير بالنسبة للتقدم الذي أحرزناه في ديننا. وبالنسبة لي شخصيًا فإن حياتي كلها عبارة عن حوار ديني داخلي، أو على الأقل النصف الأول من حياتي. فأنا أشعر بالفخر بأنني عضو في عدد من المنظمات والجمعيات الدنماركية والدولية التي تركز على عملية الحوار بين الأديان، مثل الشبكة العالمية لأديان الأطفال (The Global Network of Religions for Children)، والتي تأسست في اليابان وتتخذ من مدينة جنيف مقرها الأوربي ، والمنتدى الدنماركي

للحوار الإسلامي النصراني (The Danish Muslim Christian Dialogue-Forum) وغيرهما. وبالتعاون مع كنيسة الوحدة (Unification Church) شاركت في عدد من مؤتمرات الحوار بين الأديان من جاكرتا إلى نيويورك ومن القدس إلى ألاسكا.

ولعل أكثر ما يجعلني أشعر بالمتعة هو أن أجد الوقت للجلوس مع علماء من أديان مختلفة والتباحث معهم حول الأمور المتعلقة بعقيدتهم. وقد سبق أن جلست قرابة ثلاث ساعات في بروكسيل وتحاورت مع بوذي ياباني حول البوذية ومفهوم المسلمين لما يحدث بعد الموت. وبالنسبة لي كمسلم يبدو الأمر صعباً أن أستوعب المفهوم البوذي لما يسمونه مرحلة ما قبل الحياة الأخرى، بنفس المستوى من الصعوبة الذي يجده البوذيون في فهم المسلمين لمعنى الحياة الدنيا والانتقال بعدها للحياة الآخرة. لكن على أية حال، ومع هذه الاختلافات ، فإن الناس لديهم واجبات مشتركة في هذا العالم، فمن واجبهم أن يعيشوا بصورة طيبة وأن يكونوا محترمين وأمناء ويعملون على تحقيق الخير لغيرهم على هذه الأرض.

في أحد الأيام كنت أخاطب حشداً مكوناً من نحو ٣٠٠ شخص من مختلف الديانات في العالم جاؤوا للتظاهر من أجل السلام

أمام حائط المبكى في القدس. كنت أتحدث لهم عن معنى قوله تعالى :﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾ ، وأن اللّه سبحانه وتعالى لو شاء لجعل الناس أمة واحدة، أو قبيلة واحدة ذات لغة واحدة ودين واحد. لكن إرادته شاءت هذا الاختلاف وعلينا أن نتعلم من هذه الحكمة الإلهية. وهناك عند المسجد الأقصى نطق أحد أعضاء الوفود المشاركة بالشهادة وأصبح مسلماً، وبعد دقائق قليلة وعند قبة الصخرة نطقت إحدى الشابات الأمريكيات بالشهادة أيضاً. وقد أطلقتُ على هذه الشابة اسم مريم تيمناً بالسيدة مريم أم المسيح عليه السلام. لقد أثّرت هذه الواقعة كثيراً على هذه الشابة لدرجة أنها ظلت تبكي ليومين متتاليين.

إن للحوار بين أتباع الأديان منافع جمة وعظيمة يصعب تحديدها، ولعل الأمر الذي يجب أن يخضع للنقاش هو عدم رغبة البعض أو معارضتهم لإجراء مثل هذه الحوارات. وما سمعته عند حديثي مع أشخاص يعارضون الحوار أن فئة قليلة منهم يخشون أن يؤثر هذا الحوار سلبًا على معتقداتهم. لكن هذا القول لا يمثّل قضية لمن قوي إيمانه ، إذ إن الالتقاء مع من يختلف عنك في الدين يُقوّي من إيمانك بما تعتقده وتؤمن به .

هناك رجال دين كثر في العالم، وفي الوقت الراهن أصبح صوت الزعماء الدينيين غير مسموع بالدرجة الكافية ، لأن السياسة الدولية تحكمها المصالح الاقتصادية. ولولا الكثير من الشد والجذب وعدم التوافق بين الزعماء الدينيين، لأمكن بسهولة وضع أجندة جديدة للعالم، وهي أجندة كان يمكن من خلالها أن تأخذ الأمور المتعلقة بالأخلاق مواقع أكثر تقدماً مما هو عليه الحال في الوقت الراهن. فعندما تدار الأمور السياسية والمالية من خلال المصالح المالية فقط، فإن الأمور ستختلف عما هي عليه الآن ، وليس هناك دين يقر ما تجري عليه الأمور في الوقت الحاضر فيما يتعلق بالفجوة الكبيرة بين الأغنياء والفقراء- مثلاً - ، ولكن إذا جلس العقلاء بعضهم مع بعض دون خوف من الآخر فسيكون صوتهم مسموعاً.

ومن موقعي المتواضع في كوبنهاجن أدعو مخلصاً جميع الزعماء الدينيين من مختلف أنحاء العالم لكي يأخذ كل واحد بيد الآخر من أجل معرفة القضايا ذات الاهتمام المشترك بينها، وهو ما سيخدم مستقبل هذا العالم الذي نعيش فيه جميعاً.

المعرفة بالإسلام وتعزيز الحوار بين أتباع الأديان في اليابان

د. كينتا كاساي*

على الرغم من أن اليابان ارتبطت بعلاقات تجارية وثقافية مع بعض المناطق الإسلامية في قارة آسيا ومنطقة الشرق الأوسط منذ قرون خلت، وأن أعداد المسلمين الذين يزرون أو يقيمون في اليابان تزداد بصورة مطردة، إلا أن هناك بعض الأسباب التي أعاقت الفهم الصحيح لهذا الدين. وهذا بدوره قلل من فرص إقامة حوار مبني على الفهم المشترك للحضارة الإسلامية والحضارة اليابانية.

* دكتوراه من جامعة طوكيو، باحث في مركز معلومات الأديان في طوكيو. مهتم بالبحوث المتعلقة بجمعيات وشبكات الدعم المشترك. من بحوثه: (مداخل للدراسات الدينية Keywords for Religious Studies)، و:(مؤسسات المسلمين في اليابان Muslim network in Japan). (**اليابان**).

منذ العام ١٩٩٠م حدثت زيادة مطردة في أعداد المسلمين المهاجرين أو الزائرين لليابان. ووفقاً لبعض الإحصائيات الوطنية عن الهجرة، هناك أكثر من ٥٠ ألف مسلم في اليابان. وعلى وجه العموم فلا يمكن القول: إن الشعب الياباني يفهم الإسلام جيداً. ومن أجل تشجيع التفاهم المشترك بين هؤلاء المسلمين واليابانيين، فمن المهم نشر المعرفة المناسبة عن الإسلام.

ويبقى السؤال هو:كيف ومتى وأين نقوم بنشر المعلومة عن الإسلام لليابانيين؟

سأتحدث هنا بإيجاز عن تاريخ الإسلام في اليابان لتوضيح نوع الاحترام الذي يكنه اليابانيون لحضارات الشرق الأوسط، وتوضيح كيف أن بعض القلق المحفوف بالغموض قد تشكل حول المسلمين بسبب التغطيات الإعلامية الكثيرة للصراعات. وسأناقش كذلك التغير الذي حدث في الدور الذي يلعبه المركز الإسلامي في اليابان وكيف أن هذا التغيير قد أدى إلى تغيير في العلاقة بين اليابانيين والمسلمين. وسأوضح ثالثاً كيف أن نقص المعرفة وأنصاف الحقائق يمكن أن تؤدي إلى فهم منحاز حول الإسلام، وهو أمر ناتج عن التغطيات الإعلامية المبنية

على الصورة النمطية (إن لم تكن الصورة المحايدة)، والعدد المحدود من الساعات الدراسية في المنهج الحالي لتلاميذ المدارس في اليابان.

الإسلام والمسلمون في اليابان

ارتبط اليابان بعلاقات ثقافية مع الدول الآسيوية عبر «طريق الحرير». وترجع أقدم صور التعرف الياباني على منطقة الشرق الأوسط إلى مقال كتبه أحد الفرس الذين زاروا اليابان.[1] كان ذلك في السادس عشر من يوليو من عام ٦١٦م. ويكن الشعب الياباني احتراماً لحضارات الشرق الأوسط قبل الإسلام وبعده.

لكن تاريخ المسلمين الحديث في اليابان بدأ مع تأسيس أول ثلاثة مساجد، هي مسجد ناجويا Nagoya عام ١٩٣١م، ومسجد كوبي Kobe عام ١٩٣٥م، ومسجد طوكيو Tokyo عام ١٩٣٩م. أسس هذه المساجد لاجئون أتراك من التتار كانوا قد هربوا من الثورة الروسية، ومعظمهم مناهضون للشيوعية. وهذا يوضح أن هناك عدداً كافياً من المسلمين في هذه المدن

1) In Nihon Shoki, the oldest work of Japanese myth, legends and chronicles

لإدارة هذه المرافق. وقد أسس المسلمون في هذه المدن علاقات صداقة حميمة مع اليابانيين سواء كانوا أفراداً أو مؤسسات أو مجموعات سياسية، وأبدى عدد من المثقفين اهتماماً بأسواق القارة الآسيوية ومواردها. وقبل الحرب العالمية الثانية اعتبر بعض اليابانيين المرموقين، مثل رئيس الوزراء الأسبق سنجيرو هاياشي Senjuro Hayashi ، والعالم شومي أوكاوا Shumei Okawa ، أول من ترجم معاني القرآن الكريم للغة اليابانية، أن هذه العلاقة بين المسلمين والشعب الياباني علاقة مفيدة من أجل جمع المعلومات وتأسيس شبكات مناهضة للشيوعية في القارة الآسيوية من خلال المسلمين. واستطاع الجيل الأول من اليابانيين الذين اعتنقوا الإسلام التعلم من الحضارة الإسلامية وأسهموا في أن تصبح اليابان مركز قيادة للرخاء في شرق آسيا.

وبسبب هزيمة اليابان في الحرب العالمية الثانية وما تبعها من توجيه تُهم جرائم حرب لبعض الساسة والمثقفين، أصاب الفتور العلاقة بين المسلمين واليابانيين. لكن وخلال فترة النمو الاقتصادي لليابان، درس الكثير من الطلاب المسلمين في الجامعات اليابانية. وقد أسس الدكتور صالح مهدي السامرائي، الذي حصل على درجة الدكتوراه في الزراعة من جامعة طوكيو،

رابطة الطلاب المسلمين عام ١٩٦١م، والتي أصبحت المركز الإسلامي الدولي عام ١٩٦٦م، ومن ثم المركز الإسلامي في اليابان عام ١٩٧٤م. ومن حسن الصدف أن العام الذي تأسس فيه المركز كان هو العام نفسه الذي شهد العالم فيه ما عُرف بـ «بأزمة النفط»، إذ بدأت الرغبة عند الكثير من اليابانيين في معرفة المزيد عن الإسلام لأنهم يرون أن الإسلام هو دين دول الشرق الأوسط المنتجة للنفط.

وتهدف رسالة المركز الإسلامي في اليابان إلى دعم اليابانيين الذين يعتنقون الإسلام وذلك من خلال إقامة المناسبات الإسلامية، وترجمة الكتب عن الإسلام، وإنشاء مقبرة للمسلمين. وامتاز طلاب المركز بمهارات لغوية كبيرة من خلال إتقانهم للغة اليابانية، والعربية ولغاتهم الأصلية. كما حافظ الطلاب على علاقات صداقة طيبة بين المجتمع الياباني والعالم الإسلامي، ولذا كان المركز مصدراً لتقديم الدعم للمسلمين في اليابان، وتقديم المطبوعات الإسلامية لليابانيين. وقام المركز عام ١٩٧٧م، بالتعاون مع جامعة شو Chuo University اليابانية، ورابطة العالم الإسلامي التي تتخذ من مكة المكرمة مقراً لها، بعقد مؤتمر حول النظام لقانوني في الإسلام.

حقبة التسعينيات الميلادية: نقطة تحول

بدأ الدور الذي يقوم به المركز الإسلامي في اليابان يقل شيئاً فشيئاً مقارنة بالسابق، والسبب في ذلك يعود أولاً إلى أن فترة التركيز على التنوير الأكاديمي عن الإسلام بواسطة المسلمين في اليابان قد انتهت، وبدأ المسلمون بالتركيز أكثر على حياتهم الخاصة كمسلمين يقطنون اليابان.

أما السبب الآخر فهو انتشار المسلمين وتفرقهم في مختلف أنحاء اليابان. حتى تركيبة المسلمين في اليابان اختلفت، ففي السابق كان المسلمون الذين يأتون لزيارة اليابان والاستقرار فيه، هم النخبة المثقفة ذات المؤهلات العالية، الذين يهتمون بردم الفجوة بين الثقافتين. لكن حقبة الثمانينات الميلادية شهد فيها اليابان ازدهاراً اقتصادياً كبيراً وأصبح المسلمون يأتون لليابان من أجل استكشاف فرص العمل والاستثمار. وحيث إن الإسلام يؤكد على مفهوم العلاقة الحميمة بين الجيران، فإن غالبية المسلمين في اليابان وجدوا أنفسهم يختلطون مع اليابانيين الذين ليس لديهم أي مصلحة تجارية مع دول منطقة الشرق الأوسط. وهؤلاء اليابانيون يعيشون جنباً

إلى جنب مع مجتمع المسلمين كجيران، ولكن اهتمامهم بمعرفة الإسلام لم يكن كبيراً.

وكانت بداية التسعينيات نقطة تحول بالنسبة للمسلمين في اليابان.

ففي العام ١٩٨٩م قامت وزارة العدل اليابانية بإلغاء التأشيرة مع باكستان، الأمر الذي جعل الكثير من الباكستانيين يقررون البقاء في اليابان.

وفي العام ١٩٩٢م قام المسلمون الباكستانيون بتأسيس مسجد «ايشنواري Ichinowari Mosque»، وهو أول مسجد يتم بناؤه عن طريق التبرعات من المسلمين المحليين.

وقبل تأسيس هذا المسجد كانت هناك أربعة أماكن فقط للعبادة حول مدينة طوكيو، أما الآن فهناك أكثر من ثلاثة عشر. ولعل تأسيس هذه المساجد في أماكن متفرقة يوضح نية المسلمين العيش في تناغم مع جيرانهم اليابانيين.

ويختلف الذين أسسوا هذه المساجد الجديدة عن سابقيهم من المسلمين الذين استقروا في اليابان، فهم ليسوا أكاديميين، أو مهندسين، أو ذوي توجهات سياسية، بل إن معظمهم تجار أو عمال يعملون من أجل توفير لقمة العيش لأسرهم الموجودة معهم في اليابان.

المزيد من المعرفة .. المزيد من سوء الفهم؟

ينبغي أن يكون الشعب الياباني الآن قد تعرف عن كثب على المسلمين في بعض المراكز والمرافق في المدن، مثل المواصلات العامة، ومراكز التسوق، وحتى أماكن السكن والعمل. وأصبح الفرد الياباني العادي، الذي لا يعرف تعاليم الإسلام، يختلط مع المسلمين. ومن ناحية أخرى فإن المسلمين لا يعرفون الكثير عن عادات المجتمع الياباني، ولذا فهناك حاجة لتأسيس تفاهم مشترك. وقد بذل المفكرون المهتمون بالدراسات الإسلامية كل ما في وسعهم لتنوير اليابانيين عن الإسلام. وعلاوة على المعلومات عن تاريخ الإسلام وتعاليمه، وزع هؤلاء المفكرون مطبوعات مختلفة تتناول الطبيعة المسالمة وعلاقات التعاضد بين المسلمين. ومع ذلك فالشعب الياباني ما يزال يحمل انطباعات سالبة عن الإسلام.

لماذا؟ وما الذي يجب القيام به – على سبيل المثال – في مجال التعليم؟

في عام ٢٠٠٣م قام تاكاكي ماتسوموتو Takaaki Matsumoto، أستاذ تاريخ العالم بالمدارس العليا اليابانية، بإجراء دراسة ميدانية وسط الطلاب اليابانيين في المدارس العليا. تركزت الدراسة حول فهم أو عدم فهم

هؤلاء الطلاب للإسلام. وكشف الاستبيان، الذي شمل عينة من ١٦٧٠ طالباً، علاقة مثيرة بين معرفة الإسلام والانطباع السلبي المكون حوله. فالطالب الذي لم تكن لديه معرفة أو كانت معرفته محدودة بالإسلام لا يحمل الكثير من الانطباع السلبي عن الدين، أما الطالب الذي لديه معلومات كثيرة عن الإسلام، فاتضح أنه يحمل صورة سلبية عن الإسلام وبصورة رئيسية من خلال تركيز وسائل الإعلام على الأنشطة المتطرفة وتلك التي تتسم بالعنف والتي تصدر من بعض المسلمين.

حاول الباحث تحديد الطلاب الذين لديهم رغبة في معرفة الإسلام من خلال توجيه ثلاثة أسئلة تدور حول: أهم مكان مقدس في الإسلام، ومؤسسه، وكتابه المقدس. وقد أجاب ٦٤٨ من الطلاب بصورة صحيحة عن الأسئلة الثلاثة، واعتبر الباحث أن هؤلاء الطلاب لديهم الرغبة أو المعرفة بالإسلام. وقد كانت إجابات هذه الفئة صحيحة لمعظم الأسئلة التي وردت في الاستبيان، مثل: صيام شهر رمضان، وعدم تناول المسكرات، والزواج بأربع نساء. لكن هذه الفئة أجابت إجابات خاطئة عند توجيه بعض الأسئلة مثل: هل معظم المسلمين عرب؟ هل إله

المسلمين هو نفسه إله اليهود والنصارى؟ وهل المرأة المسلمة ملزمة بتغطية جسدها بالأسود؟

وحلل الباحث الانطباع العام للطلاب، وخلص إلى أن هؤلاء الطلاب يعتقدون أن:

- الإسلام دين مقيد به الكثير من الأوامر والقليل من الحرية مقارنة بالأديان الأخرى.
- الإسلام دين غريب وصعب الفهم وغير شامل لجميع جوانب الحياة.
- المسلمون غير متسامحين وعدوانيين.
- المسلمون رجال ملتحون يسكنون الصحراء ويمارسون التفرقة بين الجنسين.

ويعتقد الباحث أن أسباب هذه الانطباعات السلبية تعود إلى الأخبار والتقارير السلبية الكثيرة عن المسلمين ، مثل تلك التي تتناول الأعمال الإرهابية.

اليابان والحوار بين أتباع الأديان

مما سبق يتضح أنه على الرغم من أن المسلمين قد احتفظوا بعلاقات جيدة مع الشعب الياباني، وأن اليابانيين يحملون نوعاً

من الاحترام نحو حضارة منطقة الشرق الأوسط، إلا أن الافتقار إلى المعرفة الصحيحة عن الإسلام قد شكل عائقاً أمام فهم هذا الدين. وهذه الحقيقة تحتاج إلى حوار متعمق ومستمر.

ومن المعلوم أن الحوار يتطلب وجود ثقة، وأن بناء الثقة بين الشعوب يعدّ شرطاً مسبقاً مهماً وضرورياً لنجاح أي حوار. ويمكن أن يؤدي الحوار بين أتباع الأديان إلى بناء شراكات جديدة ، وجعل المشاركين في هذا الحوار يتعاملون مع التحديات الجديدة كمجموعة واحدة.

والذي يبدو أن اليابانيين تواقون للحوار مع العالم الإسلامي. فعلى سبيل المثال، كان وزير الخارجية الياباني الأسبق، يوهي كونو Yohei Kono ، الذي حضر المؤتمر الدولي حول السكان والتنمية المنعقد في القاهرة في سبتمبر من عام ١٩٩٤م، قد أشار إلى «الحوار بين الحضارات» مع العالم الإسلامي هو من الأمور التي ترغب بلاده الدخول فيها من خلال تعاون بناء.

وجدير بالذكر أن خادم الحرمين الشريفين، الملك عبدالله ابن عبدالعزيز، كان قد أعلن أول مرة عن دعوته للحوار بين أتباع الأديان عندما التقى الوفود المشاركة في منتدى حوار الحضارات بين اليابان والعالم الإسلامي، الذي عُقد في أبريل من عام ٢٠٠٨م.

في ذلك الاجتماع قال العاهل السعودي: (أرغب في الدعوة إلى مؤتمرات للحوار بين الأديان من أجل حماية الإنسانية..) ، وكان الملك يشير إلى محادثاته في روما في نوفمبر ٢٠٠٧م مع البابا بينديكتس السادس عشر Pope Benedict XVI.

كما أن البروفيسور يوزو إيتاجاكي Yuzo Itagaki ، رئيس منتدى الحوار الإسلامي الياباني حضر المؤتمر الرابع للحوار بين أتباع الأديان الذي نظمته رابطة العالم الإسلامي في جنيف في ٣٠ سبتمبر ٢٠٠٩م. وترأس واحدة من جلسات المؤتمر. وحضر المؤتمر أيضاً من اليابان كونياكي كوني Kuniaki Kuni رئيس رابطة معابد شنتو Shinto في اليابان.

ولدى مخاطبته المنتدى الرابع لحوار الحضارات بين اليابان والعالم الإسلامي، والذي عُقد في تونس يومي ١٣ و١٤ من يناير ٢٠٠٦م، أكد البروفيسور يوزو إيتاجاكي على أهمية تجاوز الخلافات التي ربما تواجه المشاركين في هذه المنتديات. وعبّر عن اعتقاده بأنه لا يمكن تغيير العالم في يومين، واعتبر أن المنتدى خطوة جدية تمهد لاجتماعات في المستقبل. وأشار إلى أن في اليابان آلاف الشباب المتخصصين في الدراسات المتعلقة بالإسلام ومنطقة الشرق الأوسط، وهم شغوفون بمعرفة

المزيد عن العالم الإسلامي. وأبدى شعوراً بالأسف لأنه لا يرى مختصين في العالم الإسلامي يهتمون بدراسة اليابان، وقال إن القضاء على هذه العقبات التي تواجه الحوار الناجح يتطلب تشجيع مثل هذا النوع من اللقاءات والمناقشات.

وفي الإطـار نفسه عُقد منتدى لحـوار الحضارات بين اليابان والعالم الإسلامي في مملكة البحرين في الثاني عشر والثالث عشر من مارس من عام ٢٠٠٢م. وكان المنتدى برعاية مشتركة من وزارة الخارجية اليابانية، ووزارة الخارجية في مملكة البحرين. وكانت من أبرز أهداف ذاك المنتدى ما يلي:

- الوضع في الاعتبار أهمية الحوار مع الإسلام كجزء من محاولة إشاعة الحوار مع مختلف الحضارات، انطلاقاً من عام الحوار بين الحضارات الذي أعلنته الأمم المتحدة عام ٢٠٠١م.
- توسيع قواعد الحوار مع الحضارات الإسلامية من خلال تعزيز فهم الإسلام، إضافة إلى تعزيز فهم اليابان في الخارج للإسلام من خلال إجـراءات تبادل الـزيـارات بين العلماء والمثقفين من الجانبين وإقامة المنتديات واللقاءات في الدول الإسلامية.

هذه الحقائق وغيرها تثبت الأهمية التي يُعلّقها المسؤولون اليابانيون للحوار بين أتباع الأديان. ويبدو أن هناك اقتناعاً تاماً بين اليابانيين المنخرطين في الحوار بين أتباع الأديان أن الحوار مع المسلمين مهم لإشاعة الحـوار مع الأديـان، والحضارات الأخرى.

المشكلات التي يمكن أن تحل بالحوار

من مشكلات الحوار بين أتباع الأديان:
نقص المعرفة عن الآخرين

د. جون حبيب*

لقيت دعوة العاهل السعودي للحوار بين ممثلي الديانات الإسلام والمسيحية واليهودية تأييداً لدى الغالبية الساحقة في المجتمع الدولي. فليس هناك شخص عاقل يرفض فكرة أن الاحترام المتبادل والتفاهم بين أتباع هذه الديانات هي من الشروط الملحة من أجل عالم أفضل. كما أنه ليس هناك شخص عاقل ينكر أن نقص المعرفة عن الآخرين - وعلى الأخص في مجال الدين - ولدت صراعات كانت لها عواقب وخيمة.

* الدكتور جون حبيب، ، دكتوراه في التاريخ من جامعة ميتشجان University of Michigan ، يعمل أستاذاً زائراً في برنامج الدراسات الإسلامية بكلية جيمس ماديسون James Madison College، بجامعة ميتشجان الحكومية. دبلوماسي سابق وأستاذ جامعي متقاعد. عمل أستاذاً زائراً في الولايات المتحدة إضافة إلى جامعة الأخوين وجامعة محمد السادس في المملكة المغربية. ألف كتابين عن المملكة العربية السعودية.(**الولايات المتحدة**).

ولهذا السبب لم تكن الحاجة إلى التفاهم المتبادل والمعرفة عن الآخرين ملحة في أي وقت من التاريخ كما هي في هذا العصر.

أناقش هنا بعض المشكلات التي تنشأ من نقص المعرفة بالآخرين، وأورد أمثلة من تجربتي الشخصية لتوضيح هذه النقطة. وأرى أيضاً أن دعوة الملك السعودي إلى الحوار تتيح فرصة غير مسبوقة لتضييق الفجوة التي يسببها نقص معرفة بعضنا ببعض، كما يمكن لهذه الدعوة أن تكون منتدى لتجفيف الغضب المكبوت والإحباط المتبادل الناجم عن النزاعات السابقة وتجنب وقوعها في المستقبل.

يبقى أن نرى ما إذا كان القادة السياسيون والدينيون في المجتمع الدولي يمكن أن يرتفعوا إلى مستوى المناسبة والاستفادة من الإمكانات التي تتيحها فكرة الحوار.

في وقت كان فيه التفاعل بين الشعوب من مختلف الثقافات والأديان أقل وتيرة مما هو عليه اليوم، كان نقص المعرفة بالآخرين يتسبب بعدد قليل نسبياً من المشكلات الكبيرة، لأن معظم الناس نادراً ما كانوا يسافرون بعيداً عن بلدانهم، لكن الثورات في مجال النقل العام تقنية الاتصالات غيّرت كل ذلك. الناس الذين لديهم معرفة ضئيلة بثقافات بعضهم

وجدوا أنفسهم فجأة مضطرين إلى التعامل مع بعضهم في أماكن العمل وفي الفنادق والمطاعم وعلى الطائرات. وغالباً ما يكونون غير مهيئين للتعامل مع الاختلافات التي غالباً ما تظهر، ومع ذلك فإن هذه المشكلات تظل معقولة ومحدودة في نطاقها الاجتماعي، لكن حين أثارت الأزمات الدولية هذه الأفكار المسبقة، وهذه المفاهيم الخاطئة، وهذا النقص في المعرفة أخذت أبعاداً مختلفة تماماً مصحوبة بعواقب وخيمة.

هناك جانبان أساسيان لنقص المعرفة عن الآخرين:

يحدث النقص عندما يكون هناك غياب تام للمعرفة. والمشكلة هنا تحل من خلال إجراء البحوث للحصول على أفضل المعلومات الممكنة في ظل الظروف السائدة. ويفترض أن يكون البحث عن المعرفة عملية مستمرة.

في الحالة الثانية تكون هناك معرفة، ولكنها معرفة خاطئة أو معيبة. المشكلة هنا عندما تكون المعلومات الخاطئة منتشرة في المجال العام، وتكون قد أثرت بالفعل في أولئك الذين حصلوا عليها بطريقة أو بأخرى. إن تحديد المعلومات الخاطئة وتصحيحها أمر ليس من السهل القيام به. المعلومات الخاطئة

والمعيبة في نهاية المطاف تدخل في إطار المعارف العامة وتصبح جزءاً من المعيار القيمي للمجتمع.

وفي ظني أن أي شخص يقرأ هذه المشاركة يمكن أن يحدد في ثقافته الخاصة مواقف ضد ثقافة معينة أو عرق أو دين أو عقيدة، بالرغم من أن هذه المواقف لا يمكن الدفاع عنها علمياً، إلا أنها تظل مع ذلك جزءاً من من الموروث الشعبي (الفولكلور)، وهي تعكس مجموع القيم المشتركة لأي مجتمع، بغض النظر عن مستوى تطوره. إن هذا الموقف يجتاز الفروق بين الطبقات الاجتماعية والأوضاع الاقتصادية ومستويات التعليم، والأديان.

قادة الحزب الديمقراطي يستخدمونه لكسب تأييد الجماهير في أوقات الأزمات، الحقيقية والمتخيلة. والطغاة يفعلون ذلك أيضاً، فبالرغم من أنهم لا يتقاسمون السلطة مع الشعوب إلا أنهم يستخدمون القيم الثقافية والاجتماعية المشتركة لكسب تأييدهم.

إن الخطر الذي يكمن في الافتقار إلى المعرفة أو في المعرفة الخاطئة كبير جداً، فقد يؤدي، بل أدى بالفعل إلى نتائج مدمرة.

ربما لا شيء يُظهر هذه الحالة من عدم المعرفة بالآخرين أكثر من صرخة: «لماذا يكرهوننا» التي ترددت في الولايات المتحدة

في أعقاب الهجمات على مركز التجارة العالمي والبنتاغون في ١١ سبتمبر «هم»، بطبيعة الحال، تعني المسلمين. بين عشية وضحاها وجد الأميركيون أنفسهم - وكذلك الأوروبيون الذين شعروا بالتهديد نفسه من تلك الأحداث، مضطرين للتعامل مع الإسلام، لكنهم لم يكونوا مهيئين لذلك. والقليل الذي كانوا يعرفون شيئاً عن الإسلام لم يكن إيجابياً، ومعظمه جاء من هوليوود.

قد يكون هناك استثناء أو اثنان، ولكني لا أتذكر فيلماً واحداً من هوليوود يظهر العرب كأفراد جادين محترمين، يعيشون حياة طبيعية بناءة. لم أشاهد مشهداً لمنزل مشابه لمنزل عائلتي وعماتي وأعمامي وأصدقائهم. بدلاً من ذلك وعلى مدى عقود ظلت السينما تصور الرجال العرب كشهوانيين مشغولين دائماً بإغواء الفتيات البريئات، أما النساء العربيات فهن في حالة رقص شرقي دائم، حتى حين يعلمن أن أزواجهن مشغولون بتلك الفتيات. وحينما لا يصور الرجال العرب كشهوانيين فإنهم يوضعون في أدوار الخونة غير الجديرين بالثقة، شاهرين سيوفهم، على حين أن نساءهم، بطبيعة الحال، مستمرات بالرقص.

اسمحوا لي بهذه المبالغة في تقديم وجهة نظر مشروعة. حين يصوّرون العرب بهذه المظاهر فإن السينمائيين - ببساطة - يهدفون إلى كسب المال، وفي تلك الأيام لم يكن الصواب السياسي معروفاً.

عندما كنا أطفالاً كان أصدقاؤنا يضايقوننا بهذه المشاهد، ولكن حين وصلنا سن المراهقة كنا قد اكتسبنا نوعا من الحصانة، وكونا مخزوناً من الانتقادات الانتقامية العرقية اللاذعة، وأصبحنا بارعين في قولها. إنها فقط مشاغبات الطفولة في ذلك الزمن.

لكن أحداث ١١ سبتمبر غيّرت كل ذلك. فبات كثير من الناس يعتقد أن ما تصوره هوليوود صحيح: العرب كانوا أشراراً، وكانوا عنيفين، وليس لديهم احترام للحياة والممتلكات.

هذه الخصائص اكتسبت المزيد من المصداقية من خلال التعليقات السلبية وتصريحات السياسيين الأميركيين وممثلي وسائل الإعلام التي تصور الإسلام والمسلمين أعداء للغرب المسيحي عامة وللولايات المتحدة بوجه خاص.

فهل من الغريب أنه في أعقاب أحداث ١١ سبتمبر نجد أن الشعب الأمريكي يؤيد السياسات الظالمة، بل وغير القانونية التي اتخذتها السلطات ضد العرب والمسلمين، حتى إنه أظهر

موافقته من خلال صمته على السجن والتعذيب والمعاملة غير الإنسانية للعرب والمسلمين؟

لحسن الحظ فإن أحداث ١١سبتمبر كانت لها آثار غير متوقعة ولكنها إيجابية، فقد أثارت اهتمام الأميركيين في التعرف على الإسلام، وإلى حد ما عن اليهودية، نظراً لعلاقة الولايات المتحدة الوثيقة مع إسرائيل. وكان من نتائج هذا الاهتمام أن حصل تقدم كبير في تخفيف الانقسام المفترض الذي يفصل بين أتباع هذه الديانات المختلفة. مباشرة بعد ١١سبتمبر مضت الأيام التي كان الإسلام والمسلمون مرتبطين- بشكل منتظم- بالإرهاب في وسائل الإعلام المطبوعة والمرئية، وفي البرامج الحوارية، وفي التصريحات الرسمية الغامضة عن عمد. اليوم يعامل الإسلام والمسلمون غالباً باحترام، بل وفي بعض الحالات يحظون بالإعجاب. ويعود معظم الفضل في هذا التغيير إلى الدور غير المباشر للحكومة.

إن تصوير هوليوود للعرب والمسلمين ليس سوى انعكاسٍ قليلٍ لتاريخ طويل من ثقافة معاداة الإسلام والعرب تعود إلى الكتاب الأوروبيين منذ فجر العصر الإسلامي. في القرنين ١٩ و ٢٠ كثير من هذه الثقافة العدائية كتبت ليس من قبل أفراد يمكن

أن يصنفوا بأنهم متعصبون أو عنصريون، بل كتبتها رموز تاريخية محترمة مثل ألكسيس دو توكفيل وونستون تشرشل، وكلاهما كان له ثقله وتأثيره ومصداقيته لدى الغرب في الحط من المسلمين والعرب.

ولمتابعة مناقشتنا حول عدم معرفة الآخرين، يجب ألا يكون سؤالنا هو فقط: «هل هناك نقص في المعرفة عن الآخرين؟» ولكن أيضاً «هل هناك قائمة من المؤلفات التي تجعل المعرفة التحقيرية عن الآخرين مستمرة؟ وما الذي ينبغي عمله تجاه ذلك؟» هذه الأسئلة تظهر أهمية تجديد الدعوة للحوار، لأنه إذا لم يكن هناك خلل ما، فما الغرض من حوار آخر؟ وإذا كان الخلل موجوداً، فكيف يمكن للحوار الجديد أن يسد الفجوة ؟

دعونا نتفحص بعض الحقائق:

الحوار بين أتباع الأديان الثلاثة ليس شيئاً جديداً، لقد بدأ وازدهر في مجالس الخلفاء والسلاطين المسلمين منذ القرون الأولى للعصر الإسلامي، واستمر طوال العصور الوسطى وما بعدها. لقرون كان العلماء اليهود والمسيحيون والمسلمون – وعلى الأخص في مجالس إسبانيا المسلمة ومدارسها - يتناقشون حول سمات عقائدهم الدينية ومزاياها وتفرد كتبهم المقدسة،

معتمدين على التفسير، أو من خلال المنطق والعقل الخالص. وقد ازدهر هذا التقليد الحواري في الجامعات والمعاهد في جميع أنحاء العالم، ولقد شاهدت ذلك بنفسي.

عندما كنت شاباً أميركياً حصلت على منحة فولبرايت في القاهرة لدراسة الفلسفة الإسلامية تحت إشراف شيخ من الأزهـر، كنت أرى جورج شحاتة قدوتي، وهـو كاهن مصري كاثوليكي دومينيكي بجانب أخيه المسلم يمتحنان أحد طلاب الدراسات العليا في جامعة الأزهر حول فروق دقيقة في الإفتاء وفي قضايا الفكر الإسلامي؛ كما رأيت لويس ماسينيون، العالم الفرنسي الكاثوليكي والمستشرق الإسلامي البـارز يتصفح المخطوطات الإسلامية في المعهد الدومينيكي للدراسات الشرقية، والبروتستانتي الدكتور إدوارد إليوت كليفرلي يترجم الأطروحات الإسلامية في الجامعة الأمريكية.[1] وقد شجعني كل من الأب عنواتي والدكتور كليفرلي في دراستي. كانا نموذجين تحتذى، ساعداني على التغلب على المفهومات الخاطئة عن الإسلام والتي كنت قد تلقفتها أثناء الدراسة الثانوية والجامعية.

هؤلاء العلماء وغيرهم في جميع أنحاء العالم تركوا إرثاً من

1) The Muslim World Volume 61 Issue 3, Pages 155 – 158

التفاهم والاحترام المتبادل لإيمان الآخرين، وخلفوا لنا تراثاً من الأبحاث الأصيلة التي تخدم من جاء بعدهم. وقد كان ديفيد باريل، عالم اللغة الإنجليزية المعاصرة، واحداً من هؤلاء اللاحقين.

نظراً للأدلة على أنه ليس هناك ندرة في الحوارات بين أتباع الأديان، وعلى أن البحوث والنتائج التي خلص إليها العلماء متوافرة لأولئك الذين يسعون إليها، فلا يملك المرء إلا أن يخلص إلى أن دعوة جديدة للحوار تبدو لأول وهلة لا حاجة لها[1]، لكن لا يبدو أن الأمر كذلك.

هناك بالتأكيد حاجة ماسة لإقامة حوار جديد، حوار يعالج حقيقة أنه ليست هناك مشكلة في نقص المعرفة عن الآخرين، بل المشكلة أن المخزون الضخم من المعلومات عن الآخرين محصور في نطاق العلماء، ووصول الجمهور إليه يكاد يكون متعذراً، والحل هو إيجاد مكان تتاح فيه هذه المعرفة للجمهور وتنتشر بينهم. والعلماء لا يملكون الموارد المالية ولا القرارات السياسية لتنفيذ هذا الحل. هذه المهمة من مسؤوليات القيادات السياسية. إن تزويد الناس بالمعرفة الصحيحة عن الآخرين ليست ترفاً بحيث يمكن للدول أن تتجاهله، بل هو ضرورة حيوية، وتجاهله يتسبب في مخاطر لا تحتمل على أمننا القومي

1) The 19th century Hungarian Jewish scholar Ignaz Goldziher is credited as being the father of Islamic Studies in Europe.

المشترك، ولننظر إلى الحرب الكارثية في العراق، والصراع المستمر في أفغانستان، ومحنة باكستان التي تتفتت أمام أعيننا لندرك هذا المعنى جيداً. لو أن المواطنين في دول التحالف كانوا أكثر اطلاعاً لم يكونوا لينساقوا للسياسات الخاطئة التي أرسلت أحباءهم وأحباء الآخرين للحرب. لم تكن مصادفة أن شعب ألمانيا وفرنسا قد عارضوا غزو العراق الذي قادته الولايات المتحدة، وأن قادتهم استجابوا لذلك الموقف. ولم تكن مصادفة أن القادة الذين دعموا الحرب - رغم المعارضة الكبيرة من مواطنيهم - قد خسروا أصوات مواطنيهم وفقدوا مناصبهم، وإسبانيا مثال واحد لهذه الحالة.

والدرس الذي يمكن استخلاصه هنا هو أن المواطنين الأكثر اطلاعاً ومعرفة يحدثون فرقاً في كيفية استجابة حكوماتهم للأزمات الدولية.

ومن هذا المنطلق يمكن القول: إن دعوة العاهل السعودي الملك عبد الله للحوار بين الأديان هي فرصة استثنائية للمجتمع الدولي لإيجاد بيئة فريدة، حيث يمكن للعلماء والقادة السياسيين العمل معاً لوضع برامج مصممة لسد الفجوة المعرفية حول ثقافات الآخرين وأديانهم، وتعزيز التفاهم والتسامح المشترك. وفي الوقت نفسه يمكن لهذه الدعوة أن تكون منتدى لمعالجة الجراح

والقضاء على الشحناء التي تولدت عبر النزاعات السابقة، ولاسيما تلك التي استخدم فيها السياسيون عديمو الضمير الدين محركاً لتحقيق أهداف سياسية بحتة، ومشكوك فيها.

يقدم الدكتور إسماعيل عبد المجيد في مقالته «مكافحة الإرهاب في العالم»[1] حججاً قوية لمبادرة الحوار التي أطلقها الملك السعودي، فهو يقول: إن الملك عبد الله يملك المؤهلات لقيادة هذا الحوار:

أولاً: فهو بصفته خادم الحرمين الشريفين يتمتع بمصداقية هائلة غير قابلة للنقاش ولا يملكها أي زعيم إسلامي آخر.

ثانياً: باعتباره مؤيداً للمذهب الحنبلي المحافظ كما فسره محمد بن عبد الوهاب فإن دعوته إلى الحوار بين أتباع الأديان لها أهمية خاصة.

ثالثاً: باعتباره ملكاً وزعيماً دولياً يحظى بالاحترام، ويسعى السياسيون والزعماء الدوليون للحصول على مشورته.

ويبقى أن نرى إن كان القادة الدوليون - خاصة زعماء الدول الغنية والمتقدمة - سوف يغتنمون هذه الفرصة ويعملون من

1) Abdul Maguid, Ismail, "Combating Terror in the World", pp 152162- in Part Two of Al-Bishr, Mohammed, ed.,Saudis and Terror, Ghainaa Publications, First Edition, Riyadh, 14262005/.

أجلها، ويدفعون بها إلى مستوى الأهمية الذي تستحقه، ويوفرون الدعم والتشجيع لجعلها حقيقة واقعة.

إن الرغبة في إجراء حوار أوسع نطاقاً لزيادة التفاهم بين أتباع الأديان الثلاثة يبقى - من الناحية العملية- مسألة جدلية ما لم يمكن إثبات أن الدين هو وسيلة رئيسة في ضبط العلاقات الإنسانية، وأنه اليوم يؤثر بقوة في السياسة العامة والسياسة الخارجية.

دعونا نبحث هذا الموضوع بعمق؛ الأدلة المتاحة اليوم تشير إلى أن الناس يتمسكون بالدين حتى في عالمنا الاستهلاكي المادي ملاذاً آمناً من عدم اليقين السياسي والاقتصادي الذي يفرضه هذا الزمن. انظر إلى عودة الناس الفورية إلى المسيحية في روسيا وبلدان الكتلة الشرقية بعد انهيار الاتحاد السوفيتي، رغم أن أنظمة تلك الدول بذلت جهوداً متضافرة على مدى ثمانية عقود من أجل القضاء على الدين. انظر كذلك في الاتجاه المتزايد بين الشعوب الإسلامية، خصوصاً الشباب، لتأكيد هويتها من خلال اعتماد الزي الإسلامي، والسعي إلى الإجابة على تقلبات الحياة في الممارسات الإسلامية الأصيلة. انظر في الدعم غير المحدود لإسرائيل من اليهود - المتدينين

والعلمانيين على السواء- في جميع أنحاء العالم لتأكيد هويتهم التاريخية وتطلعاتهم المستقبلية. الشعائر الدينية في الولايات المتحدة تحظى بتزايد ملحوظ، بل وحتى في بلدان أوروبا الغربية - حيث الحضور المنتظم للكنيسة هو الاستثناء وليس القاعدة - لا يزال المسيحيون يزورون الكنيسة ثلاث مرات على الأقل في حياتهم: لتعميد مواليدهم، ولتزويج شبابهم، ولدفن موتاهم.

أما تأثير الدين في الساحة السياسية فهو أشد ظهوراً. إنه يغذي الدعوات المطالبة بالانفصال، ويدمي الجروح المتقيحة التي تولدت نتيجة للنزاعات الماضية[1]. هناك أمثلة عدة من وقتنا الحاضر تتبادر إلى الذهن. اليوم، وبعد ما يقرب من مائة سنة، ما زال الأرمن يطالبون بالاعتراف بدعواهم أن الحكومة العثمانية عاملتهم بوحشية وطردتهم من وطنهم خلال الحرب العالمية الأولى بينما ترفض حكومة تركيا هذا الادعاء رفضاً قاطعاً. بريطانيا وفرنسا أعادتا تشكيل الشرق الأوسط المعاصر بعد الحرب العالمية الأولى من خلال إيجاد عدة مناطق مستقلة ذاتياً على أسس طائفية داخل سورية، وإنشاء جمهورية مستقلة في لبنان على أساس التمثيل

١) المصدر السابق

الطائفي، وكذلك من خلال التسريع بهجرة اليهود من أوروبا إلى فلسطين. تجاهلت هذه السياسات الرغبات المشروعة للغالبية من السكان الأصليين، وخضعت بدلاً من ذلك للمصالح الخاصة الاستعمارية والمحلية على حد سواء. لقد تسببت تلك السياسات في الاضطرابات والعنف الذي يسود المنطقة اليوم.

الصراع بين الكاثوليك والبروتستانت في أيرلندا الشمالية، والصراع التركي اليوناني في قبرص، والصراع بين المسيحيين بعد انهيار يوغوسلافيا وبينهم وبين المسلمين الذين سعوا إلى دولة مستقلة بهم، والصراعات بين المسيحيين والمسلمين في إندونيسيا والفلبين، والمواجهات بين السنة والشيعة في العراق تؤكد الأثر القوي للدين في المجتمع المعاصر. هل يتعين علينا أن نشير إلى أن الصراع في الجزائر من أجل الاستقلال عن فرنسا ولد في رحم هويتها الإسلامية، أو أن إيران الآن عملياً دولة ثيوقراطية؟ أو أن حزب الله اللبناني وحماس في فلسطين على حد سواء يسعيان لتحقيق أهداف سياسية تحت راية الإسلام؟ أو أن الناشطين الدينيين على المستوى المحلي يستخدمون وسائل عنيفة لنصرة قضيتهم لصالح الإجهاض أو ضده، وحقوق الحيوان، والعلاقات بين الجنس المثلي؟

تعقيدات هذه المشكلات تسببت في نقص المعرفة لدى عامة الناس، وهي حالة غالباً ما ترتكب من قبل القوى الاستعمارية نفسها ويتبناها الزعماء السياسيون والدينيون من السكان الأصليين. المعلومات الكافية عن الآخر لن تزيح الزعماء عن مواقعهم، بل ستؤدي إلى الفهم المتبادل مع الخصوم بما ينتج عنه حلول أخرى غير اللجوء إلى العنف، وتبادل الاتهامات والانتقام.

إن الغالبية الساحقة من سكان الأرض تتمسك بعقيدة أو بأخرى، لهذا فهي غير مسؤولة حين تتجاهل القيادات السياسية هذه الحقيقة عند صياغة السياسات العامة والخارجية. فالدين سيظل قوة ديناميكية فاعلة ومؤثرة في المستقبل المنظور، وعلى القيادات السياسية أن تتعامل مع هذا الواقع على نحو أفضل. البديل هو أن تتخلى عنه نهائياً للمتطرفين مع العواقب المأساوية التي نعرفها جيداً.

تثقيف الجماهير عن معنى التسامح وكيفية ممارسته هو الخطوة الأولى للقضاء على المشكلات التي تنتج عن عدم المعرفة بالآخرين، وهو مفهوم كثيراً ما يساء فهمه. فمن غير المعقول أن نتوقع أن الناس سوف يتعاملون مع جيرانهم بروح مدنية إذا كانوا لا يعرفون كيف يعيشون معهم بسلام، أو كيف يمنحونهم القدر اللازم من الاحترام في المقام الأول.

التسامح ليس مجرد التعبير عن المجاملة. بل يعني أن يتعامل الإنسان بإيجابية مع ظرف غير مريح أو مع الشعوب والثقافات والأديان الأخرى التي ربما يجدها غير سارة، ومزعجة، بل ومثيرة للاشمئزاز.

الأطباء يتحدثون عن تسامح المريض مع الألم، والقدرة على تحمل المعاناة. رغم أن هناك استثناءات، إلا أن الناس عموماً لا تتسامح مع والديهم، وأشقائهم، وأطفالهم وأزواجهم، إنهم بدلاً من ذلك يحبونهم، ويحتضنونهم، بل إنهم يعدونهم امتداداً لأنفسهم.

في أزمنة الكتاب المقدس كان التسامح سلعة نادرة. العهد القديم يصف بوضوح الأذى الذي ألحقه العبرانيون بالسكان الأصليين حين كانوا يسعون للاستيلاء على فلسطين واستعمارها. والعهد الجديد يسجل الصلب الدامي للمسيح والذي جرى، حسب العهد الجديد، بتحريض من اليهود، وهذا بدوره قدم للمسيحيين في القرون اللاحقة الذريعة لارتكاب الفظائع التي لا توصف ضد اليهود في أوروبا.

العصر النصراني لم يكن أفضل حالاً. النصارى يتعرضون للاضطهاد من قبل نصارى آخرين. الدول النصرانية تخوض حرباً ضد الدول النصرانية الأخرى. الصليبيون الكاثوليك صرفوا انتباههم عن تحرير الأرض المقدسة فترة تكفي لارتكاب

مذبحة في حق النصارى الأرثوذكس ولطرد اليهود من القدس.

لم يأت التسامح الديني إلى أوروبا وأمريكا الشمالية إلا في أواخر القرن التاسع عشر، وحتى ذلك الحين لم يكن التسامح عالمياً. ففي القرن العشرين كان الكاثوليك واليهود في أميركا من ضحايا التمييز الديني. لقد حرموا من عضوية منظمات محددة، ومنعتهم القوانين التي كانت تطبق بشدة من شراء منازل في مناطق معينة. معاداة الكاثوليكية المجحفة أصبحت مسألة مطروحة بقوة حين رشح جون كينيدي نفسه للفوز بالرئاسة في الولايات المتحدة. كانت الحجة ضده أنه سوف يتلقى الأوامر من البابا. وقد أصبح باراك أوباما في حملته لانتخابات الرئاسة في عام ٢٠٠٨ هدفاً للتحامل ضد المسلمين.

لقد كان التسامح هو الاستجابة الإسلامية للاضطهاد الديني. كان ثورة في المفهوم وفي عالمية التطبيق. وقد جاء إلى العالم في وقت كان فيه التعصب الديني والاضطهاد هو السائد. الإسلام يطلب من معتنقيه بكل وضوح وبساطة التسامح مع اليهود والنصارى، ليس حبهم، ولا حتى مخالطتهم اجتماعياً. إنه يطلب من المسلمين أن يحتملوا هؤلاء وأن يتركوهم وشأنهم.

ونظراً لأن بعض المعتقدات في كلتا الديانتين ممقوتة لدى المسلمين،

فمن العجيب أنه كانت لديهم القدرة على التسامح معهما. إن رفض اليهود للنبي محمد صلى الله عليه وسلم، على سبيل المثال، جرح لم يندمل بشكل كامل حتى يومنا هذا. والعقيدة النصرانية في الثالوث إهانة مباشرة للعقيدة الإسلامية الأساسية في وحدانية الله. وبالرغم من ذلك فقد تسامح الإسلام معهم وسماهم «أهل الكتاب» وسمح لهم بالعيش كمجتمعات مستقلة ذاتياً تديرهم سلطاتهم الدينية في قضاياهم الدينية. وفيما عدا استثناءات قليلة، شملت حتى بعض المسلمين، لم يتعرض النصارى واليهود للاضطهاد المنظم.

قارن هذا مع التعصب الذي تعاني منه المجتمعات المتطورة في القرن العشرين حينما عملت الأنظمة الشيوعية على القضاء على الرأسماليين فحولتهم إلى «لا بشر»، وعندما استخدمت الأنظمة الرأسمالية قوانين القضاء على الساحرات لتحديد الشيوعيين وتحييدهم. وحتى حين لم يكن الشيوعيون والرأسماليون يشكلون تهديداً لمجتمعاتهم كانوا يعاقبون بسبب معتقداتهم، كما أن أولئك الذين يقيمون معهم صداقات أو علاقات اجتماعية يطالهم النبذ أيضاً، وفقد بعضهم وظائفهم، بل إن بعضهم سجنوا.

وليس سراً أن الحركة المتعصبة المناهضة للمسلمين تقلل من فكرة أن المسلمين كانوا متسامحين مع اليهود والنصارى، في

الوقت الذي تضخم فيه القيود التي كانت تفرض عليهم، بالرغم من أنها لم تكن تطبق على نطاق واسع، كما أنه نادراً ما كانت القوة تستخدم لتطبيقها. وأظن أن ضحايا الحروب الصليبية من النصارى الأرثوذكس واليهود، وضحايا استعادة إسبانيا من اليهود والمسلمين، والملايين من الأفارقة السود الذين كانوا يباعون ويشترون كمتاع شخصي، ضحايا النازيين من اليهود، كل هؤلاء سيكونون سعداء لو أنهم وجودوا التسامح بدلاً من أن يكونوا عرضة للإذلال والتعذيب والإعدام. إن اليهود والنصارى لم يتعرضوا لمثل هذا المصير تحت الحكم الإسلامي.

من الناحية العملية كان عامة الناس من المسلمين والنصارى واليهود الذين يعيشون تحت الحكم الإسلامي يتعاملون مع بعضهم بتحضر وكياسة واحترام. وفي غالب الظن أنهم لم يكونوا يعرفون خلافاتهم المتبادلة، ولا يفهمون تفاصيلها، ولا يهتمون بها؛ لانشغالهم بمصاعب الحياة اليومية التي كانت صعبة بما فيه الكفاية.

في أمريكا يعانى كل من السود والبيض من النقص الحاد في المعرفة عن بعضهم، وحتى في الولايات غير المقسمة رسمياً على أسس عنصرية كان الناس من الفئتين يعيشون في تجمعات

منفصلة، ونادراً ما كانوا يتواصلون اجتماعياً. لقد كان لكل عرق مخاوفه تجاه الآخر، وكثيراً ما تحولت هذه المخاوف إلى أعمال شغب وعنف عرقية، وقد عانيت بنفسي من هذه الأحداث.

لحسن الحظ فقد تغيرت الأمـور، فخلال عمري تحولت الولايات المتحدة من أمة كانت فيها ولايات الجنوب تفرض الفصل العنصري بين سكانها السود والبيض بقوة القانون إلى إلغاء الفصل العنصري نهائياً، ثم إلى انتخاب رئيس أسود. هذه نتيجة لا يستهان بها للجهود التي بذلتها الولايات والحكومة الفدرالية لكسر تلك الحواجز الفاصلة. ولا يزال هناك طريق طويل يتعين قطعه بالرغم من أن هذا التقدم الذي أحرز بالفعل لم يكن الأميركيون السود والبيض يصدقون قبل عقود قليلة أنه سيحدث.

إن مساعدة اليهود والنصارى والمسلمين على تضييق الفجوة التي ما زالت تفصلهم عن بعضهم ليست صعبة كما هو الحال في أوروبا والولايات المتحدة، فخلال قرون كانت هذه المجتمعات تعيش في الشرق الأوسط جنباً إلى جنب، كانوا يتخالطون ويتزاوجون، وكانوا يعقدون شراكات في مشاريع تجارية، وكانوا يحتفلون بأعراسهم معاً، يحزنون على موتاهم معاً، ويفرحون عند ولادة طفل لأحدهم. إن اشتراكهم في عدد من الصفات

كالعرق واللغة والعادات الاجتماعية أوجد تقارباً ثقافياً جعل من المستحيل – تقريباً – تمييز بعضهم عن بعض. وعندما هاجرت مجموعات من هذه المجتمعات إلى أوروبا والولايات المتحدة نقلوا معهم هذه الروح، وكانت المهمة هناك هي أن نبني على هذا الأساس الديني والثقافي المتين.

من المؤكد أن الصدامات التي تحدث أحياناً بين العرب، نصارى ومسلمين، من جهة واليهود من جهة أخرى في مدن أوروبا وخاصة في باريس ليست قليلة، ولكنها مرتبطة بالجوانب السياسية من المشكلة الإسرائيلية الفلسطينية وليس بالأديان نفسها. لكن الأمر ليس كذلك في غرب أوروبا وشرقها، ولا في الولايات المتحدة، حيث تعاني مختلف مجتمعات الطوائف الدينية من شح المعرفة المتبادلة بينها، مما يسهم في حدوث التوترات واندلاع أعمال العنف المعروفة باسم «جرائم الكراهية».

إن نشر التسامح ليس سوى خطوة واحدة باتجاه تفكيك الحواجز التي أسهمت باستمرار حالة عدم المعرفة المتبادلة. بالتأكيد ليس ذلك هو الحل الوحيد، بل هو خطوة أولى ضرورية للقضاء على التحيزات قضاء تاماً.

المجتمع الدولي يعلم أن مشاعر الكراهية هذه كامنة في مخيلة

الأجيال، وأنه من المحتمل أن تعاود الظهور بشكل أكثر عنفاً وقسوة، ومع ذلك فهو لا يتصرف إلا عندما تشتعل الأزمة فعلاً وتظهر بقوة على السطح، ثم ما يلبث أن يعود إلى التقاعس عن العمل بعد أن تحل المشكلة بشكل مؤقت. إن إنشاء مؤتمر متخصص في معالجة هذه المشكلات بشكل نهائي كجزء من الحوار الجديد سيكون خطوة كبيرة نحو تخفيف حدة التوترات العالمية. بالطبع لا يمكن لهذا المؤتمر أن يحل كل المشكلات، لكنه إذا استطاع معالجة جزء منها فسيكون ذلك خطوة كبيرة إلى الأمام.

دعونا نضع هذه الفكرة في سياق القضية الأرمنية التركية، تلك القضية التاريخية التي حدثت قبل أكثر من قرن تقريباً. فعندما كنت دبلوماسياً أعمل في السفارة الأميركية في باريس، روى لي دبلوماسي تركي - كان قد تعرض لمحاولة اغتيال قام بها أرمني - بالتفصيل ودون أي انفعال، الرعب والذعر الذي أصابه وهو يرى المسدس الموجه نحوه لإطلاق النار عليه عدة مرات قبل أن يتركه للموت.

لا شك أنه لا القاتل الأرمني المحتمل ولا الدبلوماسي التركي الضحية يعرفان بعضهما شخصياً، ولا يحمل أحدهما حقداً شخصياً ضد الآخر، كما أنه ليس لهما أي علاقة مباشرة بالقضية

المثيرة للجدل التي ظهرت منذ سنوات طويلة قبل مولدهما.

كنت لا أزال في باريس عندما اندلعت أعمال عنف أرمنية تركية مرة أخرى. هذه المرة كان المستهدف نادياً أرمنياً -كان مقره السابق في المبنى الذي كنت أقيم فيه - وقد تعرض لتفجير تسبب في وفاة رجل برتغالي عجوز محترم كنت أبادله التحية كلما خرجت في طريقي إلى العمل، وكان من المقرر أن يتقاعد ذلك الأسبوع ويعود إلى البرتغال لعيش ما تبقى له من أيام. لقد عاد إلى الوطن فعلاً.. لكن في تابوت الموتى. بالتأكيد لم يكن هذا الضحية طرفاً في النزاع.

لقد استمر هذا النوع من العنف المتبادل بين هذين الطرفين طول بقائي في باريس ولم تعالج القضية. وبالرغم من أن العنف قد توقف الآن، إلا أن الضغائن ما زالت تلوح في الأفق.

إن على الدول واجب التصرف بمسؤولية لتجنب هذا النوع من العنف، ليس عبر حشد الأدلة ضد بعضها، فذلك لا يخدم سوى المصلحة الآنية لهذا الطرف أو ذاك.

اسمحوا لي بمزيد من التفصيل؛ إن عملية حشد الأدلة التي تؤيد أو تدحض ادعاءات كل طرف في النزاع الأرمني التركي هي مسألة توثيق لا أكثر، ولا حاجة لمزيد من التفاصيل حول هذه

النقطة. ومع ذلك، فالدول المختلفة تتبنى مواقف متناقضة تجاه هذه المشكلة، ومن الواضح أنها لا علاقة لها بالأدلة، بل تقوم على أساس اعتبارات ضيقة. الولايات المتحدة، على سبيل المثال، تبنت الموقف الحذر الغامض، وذلك احتراماً لحساسية عضوية تركيا في حلف شمال الأطلسي، بينما إسرائيل تدعم تركيا بشكل واضح بالرغم من التجارب المماثلة المروعة التي تعرض لها بعض مواطنيها، وذلك احتراماً لعلاقات الصداقة التقليدية مع تركيا. فرنسا تدعم بشكل كبير الموقف الأرمني احتراماً للرأي العام الفرنسي. هذه البلدان تتجاهل الأسس الموضوعية لهذه القضايا؛ بل تضع سياساتها على ضوء مصالحها العابرة اليوم، بالرغم من أنها قد تدفع غداً ثمناً مضاعفاً لهذه السياسات.

وليس هناك وضع يعكس الأزمة المعاصرة أكثر من النزاع الإسرائيلي الفلسطيني.

أنا لست الوحيد الذي يرى أن دعوة جديدة للحوار من شأنها أن تكون أكثر فاعلية إذا ما جرى توسيع اهتمامها لتشمل مهمة حسم الصراعات الماضية التي أدت إلى الكثير من المرارة بين أتباع الديانات المختلفة. في مقالته «القواعد الأساسية للحوار

بين المسلمين والمسيحيين»،[1] قال إدوين ماكلين غافني الابن، بسخرية، و برؤية ثاقبة: إن أي حوار هادف لا يمكن تحقيقه دون وضع مجموعة من المظالم على طاولة المفاوضات من أجل منحها نظرة موضوعية واتخاذ قرار بشأنها. وفي حين أنه لا يبرئ اليهود ولا المسلمين من الممارسات الخاطئة، لكنه يجزم أن على ممثلي العالم الغربي المسيحي أكثر من غيرهم تقديم الكثير من الشرح والاعتذار للآخرين. وهو يستشهد كمثال، بهجوم الصليبيين الكاثوليك على المسيحيين الأرثوذكس وطرد اليهود من القدس، الذين سمح لهم بالعودة إليها والعيش فيها على يد صلاح الدين الأيوبي حين استعادها من الصليبيين، كما استشهد بطرد اليهود من إنجلترا عام ١٢٩٠، ومن فرنسا عام ١٣٠٦، ومن إسبانيا عام ١٤٩٢، والبرتغال عام ١٤٩٧ من بين آخرين.

نقص معرفة بعضنا ببعض ليس السبب الوحيد، ولا هو القضية الرئيسة، لفقدان التسامح بين أتباع الديانات المختلفة، والتمييز، والتوتر، والعنف الذي ينجم عنه. إن التضليل المتعمد أو غير المتعمد ليس أقل ضرراً من نقص المعرفة عن الآخر، بل يكون أشد خبثاً حين يُروَّج من قبل الأشخاص الذين يملكون النفوذ والتأثير.

1) Gaffney Jr., Edward McGlynn, “Ground Rules for Muslim-Christian Conversation, The Christian Century, October 31, 2006, pp. 2426-.

هناك مثالان واضحان يتبادران إلى الذهن: أحدهما رجل كان ذا نفوذ ويحظى باحترام كبير هو المفكر الفرنسي ألكسيس دي توكفيل، المعروف على نطاق واسع بتأييده للحكومة الديمقراطية، لكنه معروف على نطاق أقل لتصريحاته المعادية للإسلام وللأفارقة السود، والمثال الآخر هو ونستون تشرشل.

هذا ما قاله دي توكفيل عن الإسلام:

«لقد درست القرآن بتمعن وعمق وخرجت من هذه الدراسة مقتنعاً بأن هناك القليل من الأديان في العالم يتصف بالدموية تجاه بني الإنسان كما هو دين محمد. وأعتقد أن هذا هو السبب الرئيس في هذا الانحطاط الواضح الذي يعاني منه العالم الإسلامي اليوم. وعلى الرغم من أنه أقل سوءاً من شرك العصور القديمة، إلا أن أنظمته الاجتماعية والسياسية، هي في رأيي مخيفة، وبالتالي فأنا أراه نموذجاً للانحطاط لا نموذجاً للتقدم بالنسبة للوثنية نفسها».

هذا يبرر الاعتقاد بأن الكثير من المواقف المناهضة للإسلام التي يظهرها الشعب الفرنسي اليوم يمكن أن تعزى في جزء منها إلى كتابات دي توكفيل هذه.

وهذا ما يقوله دي توكفيل أيضاً عن الأفارقة السود:

«يمكنك أن تمنح الزنجي الحرية، لكنك لا تستطيع أن تجعله غير مختلف عن الأوروبي. وليس هذا كل شيء، بل إننا نادراً ما نعترف بالسمات الإنسانية المشتركة في هذا الغريب الذي جلبته العبودية ليعيش بيننا. إن سمات وجهه بشعة في عيوننا، وفهمه ضعيف، وذوقه رديء، ونحن تقريباً نميل إلى النظر إليه ككائن وسيط بين الإنسان والسبع».[1]

دي توكفيل لم يكن لطيفاً مع الجزائريين المسلمين. في عام ١٨٣٧ وبعد وقت قصير من الاحتلال الفرنسي للجزائر، وقبل أن يعم الهدوء هذا البلد كتب يقول: «لقد سمعت كثيراً من الرجال الذين أكن لهم احتراماً، لكني لا أتفق معهم، يرون أنه من الخطأ أن نحرق الحصاد، ونفرغ الصوامع، وأن نأسر العُزَّل من الرجال والنساء، والأطفال...، وهذا، في رأيي، من الضروريات المؤسفة، فلا يمكن لأي شعب يريد أن يشن حرباً على العرب إلا أن يفعل ذلك».

استناداً إلى هذه الأقوال يحق لنا أن نفترض أن المواقف السياسية والعسكرية الفرنسية تجاه العرب والمسلمين قد تأثرت إلى

1) Historical Quotes on Islam : http://home.comcast.net/~vincep312/islam.html

حد كبير بآراء دي توكفيل، أثناء توسعاتها الاستعمارية في أجزاء أخرى من شمال أفريقيا، وفي لبنان وسوريا. وربما تأثرت بها أيضاً الإستراتيجية الإسرائيلية في تفريغ فلسطين من سكانها العرب؟

ونستون تشرشل - وبوصفه عضواً في الارستقراطية البريطانية، ورئيساً لوزراء بريطانيا خلال الحرب العالمية الثانية، وكاتباً غزيراً ومؤرخاً شهيراً، كان دون شك الإنكليزي الأكثر تأثيراً في وقته.

مثل كتابات دي توكفيل، ترجمت كتابات تشرشل إلى عشرات اللغات، وقرأها وتأثر بها الملايين من الناس.

وهذا ما قاله تشرشل عن الإسلام:

«كم هي مروعة الشتائم التي يضعها الإسلام (محمديزم Mohammedism) على ألسنة أتباعه! بالإضافة إلى التعصب الهائج، الذي لا تقل خطورته في الإنسان عن خطورة داء الكلب في الكلب. وهناك هذه القدرية الخائفة اللامبالية. إن آثار هذه السمات واضحة في العديد من البلدان، فعادات الإسراف، ونظم الزراعة السيئة، وأساليب التجارة البطيئة، وانعدام أمن الممتلكات توجد في كل مكان يحكم فيه أتباع النبي أو يعيشون فيه. وهناك المذهب الحسي المنحط الذي يحرم هذه الحياة

من نعيمها ونقائها وكرامتها وحرمتها. في القانون المحمدي يجب على كل امرأة أن تنتمي إلى رجل كأحد ممتلكاته المطلقة، إما ابنة أو زوجة، أو خليلة، ويجب إبقاء العبودية حتى يكون دين الإسلام القوة العظمى في العالم. الآلاف أصبحوا جنوداً شجعاناً مخلصين للمملكة، كلهم يعرفون كيف يموتون، لكن تأثير الدين يشل التطور الاجتماعي لأولئك الذين ينتمون إليه. ليس هناك قوة رجعية في العالم أقوى منه. إن الإسلام هو دين القوة والتبشير في الوقت نفسه، وقد انتشر بالفعل في جميع أنحاء وسط أفريقيا، مثيراً الخوف والريبة في كل خطوة يخطوها، وربما لا تكون أوروبا المسيحية محمية في أحضان علمها القوي، العلم الذي كانت قد ناضلت ضده بلا جدوى. إن حضارة أوروبا الحديثة قد تسقط كما سقطت حضارة روما القديمة».[1]

هذه الأقوال تظهر بجلاء كيف أن السياسيين البريطانيين والفرنسيين كانوا ينكرون حقوق العرب والمسلمين في أراضيهم، واختلقوا حدوداً مصطنعة تفصل بلدان العرب والمسلمين عن بعضها من أجل خدمة المصالح الاستعمارية والإمبريالية.

ربما لم يلخص كاتب هذا التجاهل أفضل من محمد جلال

1) Churchill, Winston, The River War The River War, First edition, Vol. II (London: Longmans, Green & Co., 1899), pp. 248250-

كشك: «إن الإمبريالية البريطانية والفرنسية في مصر، وفي سوريا وفي العراق كانت تتداول المدن والمحافظات كما لو كانت أسهماً في البورصة».[١]

وحتى حين منحت بريطانيا وفرنسا الاستقلال لتلك البلدان التي أوجدتها، بقي ذلك الاستقلال شكلياً، لأن تلك الدول الناشئة ظلت محكومة، خلف أبواب مغلقة، من قبل مستعمريها السابقين، والعراق خير مثال في هذا السياق حتى ثورة ١٤ تموز/ يوليو ١٩٥٨. واليوم تدعي قوى الاستعمار والإمبريالية السابقة وحلفاؤها أن مشاكل المنطقة تعود لانعدام الديمقراطية عند العرب والمسلمين، وللخلافات المستشرية بينهم، ولعدم قدرتهم على الحكم، وللأصولية الإسلامية. وهكذا يستمر سرد سلسلة لا نهاية لها من الأسباب. لكن هذه القوى لا تحمل نفسها أي مسؤولية عن خلق هذه البيئة من عدم الاستقرار في منطقة الشرق الأوسط، كما أن لا وجود لهيئة أو منتدى يمكن أن يحاسبها على ذلك.

إن المملكة العربية السعودية هي الدولة الوحيدة في الشرق الأوسط التي ظلت دائماً مستقرة وخالية من الاضطرابات الداخلية منذ الحرب العالمية الأولى، وذلك لأن مؤسسها، الملك عبد

1) Kishk, Muhammad Jalal, Saudia wal Hal Al-Islami,, (Moody Graphics & Trans.Centre Ld. London, (1961) p. 20.

العزيز بن عبد الرحمن آل سعود، أحبط كل المحاولات البريطانية للسيطرة على شبه الجزيرة العربية قبل الحرب العالمية الأولى وبعدها، وإنشاء أنظمة حكم يمكنهم التلاعب بها. وبدلاً من ذلك أنشأ الملك عبد العزيز دولة تقوم على القيم العربية والإسلامية التقليدية، ولا تزال هذه الدولة كذلك حتى يومنا هذا.

وهناك قصة قد تبدو ملفقة، لكنها متواترة: سأل السكرتير الخاص لونستون تشرشل رئيسه: ماذا ستفعل بريطانيا العظمى بعد أن فقدت إمبراطوريتها؟ أجاب تشرشل: «لا تقلق يا بني، لقد تركنا لهم ما يكفي من المشاكل للمائة سنة القادمة».

إن الحوار الفعال يتطلب نشر المعلومات الصحيحة لتضييق الفجوة المعرفية حول الآخرين، كما يتطلب أيضاً أن تخضع المعلومات التي تحمل تحقير الآخرين والإساءة إليهم بشكل واضح إلى تدقيق أشد، ومن ثم التعامل معها وفقاً لذلك، حتى لا ينشر للجماهير سوى الحقائق.

ولعل كتابات دي توكفيل وتشرشل تبدو مناسبة كمنطلق لهذا النوع من تدقيق المعلومات.

إشكالية التفريق بين الإسلام والمسلمين

محمد السماك*

يواجه العالم المعاصر متغيرات ثقافية وسياسية واقتصادية، تفرض تحديات من نوع جديد على الأمم والشعوب المختلفة الثقافات والأديان والمصالح، ولا يستثنى من ذلك العالم الإسلامي.

بل إن المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها معنيون بهذه المتغيرات مواجهة وتكيّفاً واستيعاباً، باعتبار أن الإسلام دعوةٌ إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، مفتوحة للناس جميعاً حتى قيام الساعة.

* أمين عام اللجنة الوطنية للحوار الإسلامي-المسيحي في لبنان، متخصص في الحوار الإسلامي المسيحي والعقائد الصهيونية. له مشاركات واسعة في المؤتمرات التي تتناول قضايا الحوار بين الأديان، وعضو في العديد من اللجان الإسلامية، والفكرية والإعلامية. له عدد من المؤلفات، منها: مقدمة إلى الحوار الإسلامي المسيحي، واستغلال الدين في الصراعات السياسية، والصهيونية المسيحية. (**لبنان**).

لقد جاء الإسلام وفي أساس دعوته أنه رسالة للعالمين - وليس للعرب وحدهم - إلا أنه في عالمية رسالته لم ينكر في الأساس لا النصرانية ولا اليهودية رسالتين من عند الله. فالإسلام في المفهوم الديني هو كل المسيرة الإيمانية بالله الواحد بدءاً من إبراهيم ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾، حتى محمد مروراً بموسى وعيسى واسحاق ويعقوب وسائر الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام.

وللعالمية الدينية في الإسلام إشارات واضحة في القرآن الكريم، مصدر التشريع الإسلامي، أورد ثلاثاً منها:

تحمل الإشارة الأولى الآية الأولى من سورة النساء؛ تقول هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ (النساء - ١). إن في ذلك تأكيداً على المساواة بين أجناس البشر كافة مهما اختلفت أعراقهم وألوانهم، ومهما تباينت أديانهم ومذاهبهم. فكل الناس، دون استثناء، مخلوقون من نفس واحدة.

وتتمثل الإشارة الثانية في الآية ٧٠ من سورة الإسراء. وفيها يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾، والتكريم الإلهي هنا هو لبني آدم، أي لكل الناس، بصرف النظر عن أي انتماء عرقي أو ديني أو حضاري أو قومي، وبصرف النظر كذلك عن طبيعة

الإيمان أو شكله أو مقوماته. فالإنسان مكرّم لذاته الإنسانية، وليس لقومية ينتسب إليها، أو إلى عقيدة يؤمن بها.

أما الإشارة الثالثة فتعكسها الآية ١٠٧ من سورة الأنبياء. في هذه الآية يخاطب الله عزّ وجلّ النبي محمد ﷺ بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾. أي لكل الناس. في العالم كله. وليس للعرب بني قومك فقط.

من هنا فإن عالمية الإسلام؛ أي عالمية رسالته ودعوته، تستمد أسسها من المساواة التامة بين الناس جميعهم في الخلق من نفس واحدة، ومن التكريم الإلهي لبني آدم الذين أورثهم الأرض واستخلفهم فيها وفضّلهم على كثير ممن خلق، حتى على الملائكة.

غير أن الإسلام يتعرّض في هذه المرحلة التاريخية إلى كثير من التشويه والإساءة. ولا يعود ذلك إلى أعداء الإسلام فحسب، الذين يقوم عداؤهم له على الجهل به. ولكنه يعود أيضاً إلى الدور الذي تؤديه قلة صغيرة من المسلمين من خلال تقديم صورة سلبية عنه يجري تعميمها على أنها هي صورة الإسلام. وهكذا يتلاقى الجهل بالإسلام مع سلوك بعض المسلمين لبلورة كراهية تتجسد في السلوك والمواقف والاعتقادات. ومن ثم تعمم ثقافة كراهية الإسلام والمسلمين على النحو الذي تعكسها ظاهرة ما

يعرف بـ (الإسلاموفوبيا). ومن هنا ينطلق الخلط بين الإسلام من حيث هو رحمة وهدى ونور إلهي للإنسانية كلها، وبين بعض المسلمين الذين يشوّهون الرسالة الإسلامية بسلوك يتناقض مع ما تقول له من قيم سمحاء.

إن سلوك بعض هؤلاء المسلمين – أو المحسوبين على الإسلام – يحمّل الإسلام وزر ما يقولون وما يفعلون، والإسلام من ذلك براء. فالخطاب الإسلامي يقوم مع التمسك بالثوابت الإيمانية. وذلك ما تؤكده آيات قرآنية كريمة كثيرة، أكتفي بالإشارة إلى آيتين فقط:

تقول الآية الأولى (الآيتان ٧٠-٧١) من سورة الأحزاب:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾.

فالقول السديد لا يؤدي إلى غفران الذنوب فقط، ولكنه يؤدي حتى قبل ذلك إلى إصلاح الأحوال. وبقدر ما يكون الخطاب الإسلامي العام بعيداً عن السداد، تكون أحوال المسلمين بعيدة عن الصلاح. والعكس صحيح.

أما الآية الثانية (الآيات ٢٤-٢٥-٢٦) من سورة إبراهيم فتقول:

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ

وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاء ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾. إن الكلمة الطيبة لا تثمر إلا طيباً، بل إنها دائمة الثمر الطيب بإذن ربها. لأن اللّه طيب لا يقبل إلا طيباً. أما الكلمة الخبيثة فإنها مجردة من الرحمة الإلهية. وهي لا تعطي إلا ما هو خبيث وسيئ وفاسد.

إن خطاب الغلو والتطرف والتشدد الذي يتمثل في رفض وإدانة الآخر المختلف واستعدائه، يتناقض مع مبادئ السماحة الإسلامية، كما يتناقض مع القاعدة الإيمانية التي أكد عليها القرآن الكريم والتي تترك للّه وحده الحكم بين الناس في اليوم الآخر، فيما كانوا فيه يختلفون.

في توصيف الواقع:

عندما تحدّد جماعة معينة شخصيتها على أساس الدين الذي تؤمن به، أو عندما ينظر آخرون إليها خلال هذا التحديد الديني الذي تؤمن به، فإن الأمور تبدو أكثر تعقيداً وأكثر قابلية للتفجر. فالإيمان الديني يعكس أعمق ما في الإنسان وفي الجماعات من مشاعر. إنه يشكل الذاكرة الجماعية، والولاء

الجماعي. وهذا أمر واضح وجليّ في الإسلام كما في الرسالات السماوية الأخرى. يقول المفكر البريطاني مونتغمري وات في كتابه (الإسلام والفكر السياسي): (إذا نظرنا بصورة عامة إلى العلاقة بين الدين والسياسة، فإن من المفيد النظر أولاً إلى المكان الذي يحتلّه الدين في حياة الفرد. فبالنسبة للفرد الذي يعني عنده الدين شيئاً أساسياً وليس شكلياً، فإن أمرين يمكن التأكيد عليهما: النقطة الأولى هي أن إنكار ديانته تشكل الإطار الثقافي والمعرفي الذي تنطلق خلاله كل أفعاله. أما النقطة الثانية فهي أن الدين يحرّك أو يتسبّب في تحريك كل أنشطته وتطلعاته. ذلك أنه من دون الدين ما كان للفرد أن يقوم بكل ما يقوم به من أعمال).

من أجل ذلك غالباً ما يُزجّ بالدين في الصراعات بين الناس، ولو كانت هذه الصراعات في أساسها وفي جوهرها تدور حول مصالح لا تمتّ إلى الدين بصلة. حتى أصبحت حالة الصراع أو حالة الحرب هي الأكثر رواجاً. وتقول دراسة أعدّها عدد من الخبراء ونُشرت في عام ٢٠٠٣م: (إن تاريخ الإنسانية لم يشهد سوى فترات قليلة من دون حروب وصراعات. وأنه في القرن العشرين وحده قُتل ما لا يقلّ عن مائة مليون إنسان في حروب عالمية).

مع ذلك، فعندما تعصف بالعلاقات الإنسانية أزمات حادة على النحو الذي تعاني مجتمعات عديدة من تبعاته ومن نتائجه الخطيرة في الوقت الحاضر، فإن من الطبيعي ومن المنطقي أن يتوجه الناس إلى القيم السامية بحثاً عن حلول ومعالجات. وإذا كانت هذه القيم مكرسة في المواثيق الدولية مثل ميثاق الأمم المتحدة وشرعة حقوق الإنسان ومواثيق جنيف وسواها، فإنها أبرز ما تكون في الشرائع السماوية التي أنزلها الله على أنبيائه لإصلاح أحوال الناس في الدنيا والآخرة. وبعد الأنبياء تتولى المراجع والمؤسسات الدينية القيام بهذه المهمة الأخلاقية السامية على أساس التعاليم التي تنصّ عليها شرائعها السماوية. ولعل في هذا ما يفسر الحديث النبوي الشريف (العلماء ورثة الأنبياء). بمعنى أنهم ورثة دورهم في الدعوة إلى الخير والمحبة والسلام بين الناس.

عندما يتوافق روح النص مع قناعات المرجعيات العلمية الدينية ومفاهيمها، تؤدي هذه المرجعيات دورها البنّاء في معالجة هذه الأزمات. ولكن هذا التوافق لا يحصل دائماً مع الأسف. الأمر الذي يشكل عقبة تعترض أداء هذا الدور وتعطّل المعالجة المنشودة. وربما يصبح عدم التوافق بين النص الديني

وموقف عالِم الدين مشكلة في حدّ ذاتها تصبّ الزيت على نار الأزمـات المشتعلة، الأمـر الذي يحمّل الدين ظلماً، جانباً من المسؤولية وأحياناً كل المسؤولية.

يتأسس عدم التوافق بين سمو النص وانحيازية المرجع على عدة أمور من أبرزها:

أ- سوء فهم النص، ومن ثم سوء استخدامه.

ب- سوء تفسير النص، ومن ثم سوء تأويله.

ج - تراكم الصور النمطية السلبية عن الآخر المختلف دينياً أو ثقافياً.

د - عدم توافر جسور الحـوار والتواصل، ومن ثم انعدام المعرفة التي يقوم عليها التفاهم.

هـ - انتشار ثقافة احتكار المعرفة، ويتلو ذلك ثقافة احتكار الحق المطلق والوصول إليه.

من هنا تفرض التساؤلات التالية نفسها:

لماذا تحمل معظم الحروب والصراعات الدموية التي يعاني منها العالم اليوم طابعاً دينياً؟... هل مصادفة أن يُتهم الدين بالوقوف وراء معظم التوترات التي تعصف بالعلاقات بين الشعوب والأمم المختلفة؟... ولماذا لم تنجح الحوارات بين أهل

الأديان في منع وقوع مثل هذه الحروب والصراعات والتوترات؟ وهل كان ذلك لأن المشكلة دينية أم أن جوهرها يكمن في توظيف الدين في الأزمات السياسية؟

مع ذلك، فإن هذه الأمور لا تشكل لحسن الحظ ثوابت دائمة. إنها الوجه الآخر للواقع، وهو الوجه الذي يستقطب الاهتمام لسلبيته وليس لصوابيته. أما الوجه الآخر الذي غالباً ما يتم تجاوزه، جهلاً أو تجهيلاً، فإنه ينطلق من مقومات وقيم معاكسة للأمور الخمسة التي سبقت الإشارة إليها.

وهنا تبرز المسؤولية الإسلامية في إرساء القاعدة الثابتة لجسر الفهم والتفاهم والاحترام المتبادل. وهي مسؤولية يصطدم الالتزام بها بصعوبات متداخلة لا بد من الإقرار بها ومن ثم العمل على معالجتها، منها:

أ- تصاعد موجة الأصولية (ليس بمعنى العودة إلى الأصول، بل بمعنى احتكار الحقيقة وتكفير كل من هو خارج ثقافة الاحتكار).

ب - التداخل بين ما هو ديني وما هو سياسي في الأزمات التي تعصف بالعالم الإسلامي وبعلاقاته مع العالم.

ج - عدم فك الارتباط بشكل جذري في الإعلام والثقافة وفي

الممارسة السياسية بين الحرب على الإرهاب وما يبدو أنه حرب على الإسلام.

د - اتساع نطاق ثقافة العقاب الجماعي التي تعاني منها الجاليات الإسلامية في بعض دول الغرب نتيجة للأعمال الإرهابية المدانة التي يرتكبها أفراد أو جماعات محسوبة على الإسلام.

هـ - الانعكاسات السلبية لهذه الثقافة على أوضاع المواطنين النصارى في بعض الدول الإسلامية.

أدرك المسلمون أن صورة الإسلام في الوقت الحاضر سيئة ومشوّهة. وتجسّد هذا الإدراك والتصدي له والسعي إلى تصحيحه في المبادرة التي اتخذها خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز أولاً في مؤتمر مكة للعلماء المسلمين، ثم في مؤتمر مدريد الذي جمع ممثلين عن أهل الأديان والثقافات، وبعد ذلك في نيويورك حيث تبنّت الأمم المتحدة مبادرة العاهل السعودي لإقامة جسور التعارف والتفاهم والاحترام المتبادل بين أهل الأديان والعقائد والثقافات المختلفة.

الفرق بين أن تكون صورة الإسلام سيئة أو مشوّهة هو أن السوء يتمّ بأيدٍ إسلامية، وأن التشويه يتم بأيدٍ غير إسلامية،

بعض التشويه عن عمد وكراهية وبعضه الآخر عن جهل وسوء تقدير. أسهم في الإساءة وفي التشويه معاً أمور ثلاثة:

أولاً: غياب - أو تغييب - المركزية في المرجعية الإسلامية.

ثانياً: فوضى الفتاوى الشرعية وتناقضها.

ثالثاً: سوء التصرف وتفلّت ردّات فعل بعض المسلمين باسم الإسلام.

كذلك أدرك المسلمون أن الهوة بين العالم الإسلامي والعالم هي في اتساع، ما يشكّل خطراً ليس على أوضاع المسلمين وحدهم وعلى مصالحهم، إنما ينعكس سلباً على الاستقرار والأمن العالميين. فالمسلمون كالنصارى منتشرون في كل بقاع الدنيا تقريباً، ثلثهم يعيش في دول ومجتمعات غير إسلامية، ولذلك فإن استعداءهم أو مجرد شعورهم بالاستعداء قد يفجر اضطرابات دينية سرعان ما تتحول إلى صراعات وصدامات أمنية وسياسية.

وأدرك المسلمون أيضاً أن ظاهرة (الإسلاموفوبيا)، أي كراهية الإسلام عن جهل به، تزداد حضوراً في الثقافة الغربية العامة بسبب الدور الترويجي لها في الإعلام العالمي. فالمسلمون في الغرب يواجهون خيارات تتراوح بين التقوقع على الذات أو

الذوبان في مجتمعاتهم الجديدة، كما يواجهون وضعاً يضطرون معه للاختيار بين الانتماء إلى الهوية الجديدة ثقافياً واجتماعياً أو الالتـزام بثقافتهم المستمدة من القيم الإسلامية؛ وبين التمسك بعاداتهم وتقاليدهم أو الصدام مع المجتمع الجديد الذي يعيشون فيه.

ولقد أدّى ردّ الفعل الإسلامي على هذه الظاهرة، بما اتسم به أحياناً من توتر وسلبية، إلى زيادة الهوة اتساعاً، وأدّى إلى تغذية الإسلاموفوبيا وتنميتها.

ذلك أن سوء فهم الإسلام من جهة، وسوء تقديم الإسلام بسبب سوء تصرف بعض المسلمين من جهة ثانية، يوفران المادة للمزيد من الأفعال والمواقف التي تسيء إلى علاقات المسلمين مع الآخرين، بحيث يكون الفعل أو القول المعادي مبنياً على سوء الفهم، وبحيث يكون ردّ الفعل الإسلامي أو باسم الإسلام مبنيّاً على سوء تفسير الأسس والمبادئ الشرعية التي يفترض أن يقوم عليها هذا الرد. الأمر الذي يؤدي إلى تغييب الحكمة والمنطق في تبادل الاتهامات مما يعمّق عدم الثقة المتبادل.

من أجل ذلك كان لا بد من القيام بمبادرة ما على الصعيد الإسلامي تكون ذات بُعد عالمي وتنطلق من مبدأ إيماني يؤصل

لعلاقة الإسلام مع أهل العقائد والثقافات الأخرى على قاعدة إنسانية مشتركة، فكانت مبادرة خادم الحرمين الشريفين.

أبـرزت هذه المبادرة أمـام أهل الأديـان والثقافات كيف أن الإسلام يقوم على:

- قيم التسامح لا العنف.
- الاعتدال لا التطرف.
- الوسطية لا الغلو.

وبيّنت أصالة ثقافة قبول الاختلافات واحترامها بما في ذلك الاختلافات الدينية. ونبذ المفهومات التي تحتكر الطريق إلى الله والإيمان به. وإقامة علاقات تعاون وسلام مع أهل الأديان الأخرى، لا التصارع معهم.

كما أنها عملت على تصحيح صورة الإسلام، وذلك عبر:

- فك الارتباط بين الدين والتوظيف السياسي له.
- إبـراز القيم الدينية الإسلامية التي تتلاقى مع القيم الإنسانية السامية.
- مدّ يد الحوار والتعاون لا التنابذ والتقاتل.
- العمل على بلورة صورة لعالم يقوم على مبدأ التكامل الحضاري وليس على التصارع بين أهل الحضارات والأديان.

فالقرآن الكريم يقول: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ (الأنبياء - ١٠٥). كما يقول: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ سورة (البقرة - ٣٠). ولم يقل إنه استخلف شعباً دون آخر.

التوظيف السياسي للدين:

في عام ١٨٥٦ بعث الدبلوماسي الفرنسي بلانش - وكان قنصلاً لبلاده في بيروت - بتقرير إلى وزارة الخارجية الفرنسية قال فيه: (الحقيقة الكبرى والأبرز التي تحضر أثناء دراسة هذه البلدان، هي المكانة التي يحتلها الفكر الديني في أذهان الناس، والسلطة العليا التي يشكلها في حياتهم. فالدين يظهر حيث كان، وهو بارز في كل المجتمع الشرقي، في الأخلاق وفي اللغة والأدب وفي المؤسسات... وترى أثره في كل الأبواب... الشرقي لا ينتمي إلى وطن حيث ولد، الشرقي ليس له وطن، والفكرة المعبرة عن هذه الكلمة، أي عن كلمة وطن، أو بالأحرى عن الشعور الذي توقظه، غير موجودة في ذهنه، فالشرقي متعلق بدينه كتعلقنا نحن بوطننا. وأمة الرجل الشرقي هي مجموعة الأفراد الذين يعتنقون المذهب الذي يعتنقه هو، والذين يمارسون الشعائر ذاتها، وكل شخص آخر بالنسبة له هو غريب...).

بين سنة ١٨٥٦م وسنة ٢٠٠٩م لا يبدو أن شيئاً أساسياً في هذه البنية الاجتماعية قد تغيّر.

ولو يعود بلانش إلى الحياة اليوم لما غيّر في تقريره فكرة واحدة. سيرى أن ملابسنا وبيوتنا وشوارعنا قد تغيرت إلا أن نفوسنا بقيت كما عرفها وكما وصفها قبل أكثر من قرن ونصف القرن.

وشهد عصرنا الحاضر ظاهرة اتساع التديّن في العالم كله. تعكس هذه الظاهرة الأرقام التالية:

في عام ١٩٠٠م كانت نسبة المؤمنين (بالنصرانية واليهودية والإسلام والبوذية والهندوسية) تعادل ٦٧ بالمائة من الناس. في عام ٢٠٠٥م ارتفعت النسبة إلى ٧٣ بالمائة، ومن المتوقع أن تواصل ارتفاعها لتصل في عام ٢٠٥٠م إلى ٨٠ بالمائة. تترافق هذه الظاهرة مع ظاهرة التعصب والغلوّ. وبقدر ما تكون ظاهرة التديّن بناءة تكون الثانية هدامة. تبرز هذه الحقيقة من خلال اتساع مساحة التشابك بين الدين والسياسة؛ من الهندوسية في الهند، إلى البوذية في تايلند، إلى اليهودية في إسرائيل، إلى الإنجيلية في أمريكا، والى الإسلام في بعض الدول الإسلامية.

كما شهد العصر الحاضر انتشار النصرانية في دول العالم

الثالث وخاصة (في آسيا وإفريقيا: في عام ١٩٠٠م كان ٨٠٪ من النصارى في أوربا وأمريكا الشمالية).

أما الآن فإن ثلثي النصارى يعيشون في العالم الثالث حيث يستوطن الإسلام. هذا يعني أنه لم تعد النصرانية دين الرجل الأبيض، أو دين الغني، أو دين المستعمر.

ويرى د. أندرو والز من جامعة أدنبرة: أن الأحداث المكونة للنصرانية في القرن ٢١ تجري في آسيا وإفريقيا، وأن المجتمع الأوروبي هو مجتمع ما بعد النصرانية Post Christianity. ثم إن الإسلام الذي كان غريباً عن أوربا وأمريكا الشمالية والجنوبية وكذلك أستراليا، أصبح حاضراً فيها بملايين المسلمين، بل جزءاً من همّها اليومي، وأضافَ بثقافته لوناً جديداً لم يألفه الكثيرون ولم يتآلفوا معه.

هذان الأمران وضعا الإسلام والنصرانية في حالة تماس دائم. فإما تعايش وإما تصادم. ففي نيجيريا مثلاً، قد تتجاور قبيلتان واحدة نصرانية والثانية إسلامية، فإذا اختلفتا على رعي الماشية مثلاً أو على ريّ الحقول الزراعية، يتحول اختلافهما إلى تصارع ديني قبلي، ومنه إلى صراع وطني، فدولي. من هنا تكمن أهمية التربية على احترام الاختلاف الديني وعلى ثقافة عدم احتكار الحقيقة.

إن الصراعات بين الناس عندما تدور حول المصالح فإنها تكون قابلة للتسوية بما تتطلبه التسوية من تنازلات متبادلة. ولكن عندما تدور حول العقيدة، فإن التسوية هنا تصبح على حساب المبادئ الإيمانية، حيث يبدو أي تنازل وكأنه تنازل عن ثوابت هذه العقيدة، وهو أمر لا يملك قراره أحد، ولا يجرؤ على تحمّل نتائجه أحد، من هنا تبرز خطورة توظيف الدين في السياسة وتوظيف السياسة في الدين، وهما من الأمور التي تؤدي إلى سدّ الأبواب في وجه التسويات التي تفترض طبيعتها أن تكون منفتحة على المفاهيم والاجتهادات المختلفة وعلى ضرورة احتوائها ومعالجتها بالحسنى، بل بالتي هي أحسن.

من هنا فإن أطول الصراعات وأعقدها التي عرفتها الإنسانية في تاريخها هي الصراعات المتلبسة بالرداء الديني أو العقائدي، ثم إنها كانت أشرسها. فالتوظيف الديني للصراع كان ولا يزال يشكل القوة المحركة لظاهرة (الاستشراس) من جهة، ولما يتسم به المرتبطون بهذه الظاهرة من استعداد للتضحية بالنفس وللتفاني بالغالي والثمين من جهة ثانية. وهذه مشاعر إنسانية تقوم على أساس الاعتقاد بأن التضحية واجب مقدس للمحافظة على حق الله والدفاع عنه.

الإسلام والاختلاف:

يقرر الإسلام الاختلاف حقيقةً إنسانيةً طبيعيةً، ويتعامل معها على هذا الأساس: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا**﴾ (سورة الحجرات، الآية ١٣).

ومع اختلاف الألسن والألوان كان من طبيعة رحمة الله اختلاف الشرائع والمناهج، وهو ما أكدته الآية ٤٨ من سورة المائدة: ﴿**لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ إِلَى الله مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ**﴾. وسورة هود ﴿**وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ**﴾ (سورة هود، الآية ١١٨- ١١٩).

ولقد أرسى القرآن الكريم قواعد واضحة للاعتراف بالآخر وبوجهة نظره إجلاءً للحقيقة، وذلك من خلال الحوار المباشر الذي يبدي فيه كل طرف رأيه بحرّية. وفي القرآن الكريم نماذج غنية لهذه الأنواع من الحوارات.

فهناك صيغة الحوار، كما ورد في سورة الأعراف (الآيات من ١٠ إلى ٢٤)، وفي سورة الحجرات (الآيات من ١٥ إلى ٤٠).

وهناك صيغ حوار الله تعالى مع الأنبياء (الآية ٢٦٠ من سورة

البقرة)، وهناك حوار الأنبياء مع الناس (الآية الأولى من سورة المجادلة)، وهناك حوار الناس مع الناس (الآية ٣٤ من سورة الكهف).

أرسى مجتمع المدينة المنورة في عهد النبي محمد ﷺ قاعدة لإقامة نسق تعاوني بين فئات الناس من مؤمنين وأهل كتاب. الوثيقة النبوية أقرت أصحاب الآراء على آرائهم وتكفلت بحمايتهم كما هم. قام مجتمع المدينة على قاعدة نشر الدعوة مع تقبّل الاختلاف واحتضانه، وليس مع تجاهله ولا مع محاولة إلغائه.

حاور النبي ﷺ نصارى نجران في بيته المطهّر في المدينة المنورة وأحسن وفادتهم. وعندما حان وقت صلاتهم لم يجد النبي أي غضاضة في دعوتهم، كما تذكر رواياتُ الثقات، إلى أداء صلاتهم. إن العقيدة في الإسلام، تستقر بالفكر اختياراً ولا تُلْصقُ باللسان قهراً وإكراهاً.

على قاعدة هذه السابقة النبوية في دولة المدينة الأولى، فإن الإسلام لا يضيق حتى بتنوّع الانتماء العقدي، ولا يأخذ بالنقاء العرقي (لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى). فإذا كان التنوعُ من طبيعة تكوين المجتمع - بل والعالم -، فإن الحوار هو الطريق الوحيد الذي يؤدي بالاختيار الحر وبالاحترام المتبادل إلى الوفاق

والـى التفاهم والسلام. ذلك أن البديل عن الحـوار هو القطيعةُ والانكفاءُ على الذات وتطويرُ ثقافة الحذر والشك والعداء للآخر.

يتبيّن من ذلك أن الحـوار يتطلب وجود تباينات واختلافات في الموقع وفي الفكر وفي الاجتهاد وفي الـرؤى. وفي ذلك انعكاس طبعي للتنوع الذي يعدّ في حدّ ذاته آية من آيات القدرة الإلهية على الخلق ومظهراً من مظاهر عظمته وتجليّاته. والقرآن الكريم يشير إلى ذلك في مواقع عديدة، فالآية ٢٢ من سورة الروم تقول: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾. وفي الآية ٩٩ من سورة يونس، يقول القرآن الكريم: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾.

إن وحدة الجنس أو اللون أو اللغة ليست ضرورة حتمية لا يتحقق التفاهم دونها. لذلك لا بد، من أجل إقامة علاقات مبنية على المحبة والاحترام، من الحوار على قاعدة هذه الاختلافات التي خلقها الله، وأرادها أن تكون، والتي يتكشّف للعلم أنها موجودة حتى في الجينات الوراثية التي تشكّل بعناصرها شخصية كل واحداً منّا وتمايزاتها، ومن ثم الشخصية المجتمعية لشعب معين أو لأمة معينة.

وفي أي مجتمع متعدّد الأديان والمذاهب يصبح الحوار الدائم المنفتح ركناً من أركان وحدته واستقراره. فالحوار لا يكون إلا مع

الآخر، وإلا يصبح حواراً مع الذات. والآخر لا يكون إلا مختلفاً وإلا تنتفي الحاجة إليه. لذلك فإن الركيزة الأولى للحوار هي القبول بالتعدد وبالاختلاف معاً. يشكل هذا القبول ميزة من ميّزات الفقه الإسلامي. إن القرآن الكريم يقول: ﴿وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾. (سورة هود - الآية ١١٨). إن من العبث إلغاء الاختلاف، ومن المستحيل صهر كل العقائد والأفكار في بوتقة واحدة وتحويلها إلى وفاق مطلق. ولكن من الممكن جدّاً، بل من الضروري، عدم تحويل الاختلاف إلى خلاف. لقد شبّه روجيه غارودي في كتابه: (نحو حرب دينية) ص ٩٦، الإنسان بأنه (مثل موجة تسكنها جميع اندفاعات المحيط، موجة بلا حدود في محيط من الطاقة لا ضفاف له. كذلك الإنسان، فهو مسكون بجميع الآخرين. إنه جميع الآخرين).

خاطب الإسلام العقل الإنساني احتراماً واعتمد على المنطق وعلى مقارعة الحجة لتسفيه عقيدة الشرك، ولتحرير الإنسان من عبادة الأوثان احتراماً له أيضاً وإقناعه بعبادة الله الواحد الأحد. ولم يحمل السيف داعياً، فالدعوة إلى الله لا تكون إلا بالحكمة والموعظة الحسنة. ولكن عندما حمله كان دفاعاً عن النفس وعن العقيدة، ومبدأ الدفاع هنا هو الأساس الذي يقوم عليه ركن الجهاد وفلسفته.

الخاتمة:

يرسي الإسلام ثوابت أساسية للعلاقات الإنسانية. في مقدمة هذه الثوابت:

أولاً: أن الإنسان لا يأثم على ذنب لم يقترفه ﴿وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ (الأنعام - ١٦٤).

﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ (الإسراء - ١٥).

ثانياً: أن الإنسان هو خليفة الله على الأرض. وخلافة الله مهمة تعكس أعلى مراتب التكريم الإلهي للإنسان.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾. (البقرة - ٣٠).

ثالثاً: لأن الإنسان هو خليفة الله، فقد سخر الله له ما في السماوات وما في الأرض ﴿اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَينَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾. (إبراهيم: ٣٢-٣٤).

هذا يعني أن الله خلق قوانين الطبيعة وسخّرها للإنسان ليقوم بمهمة خلافة الله في إعمارها. ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ (هود:٦١). ذلك أن من مقومات خلافة الله عمارة الكون وبناؤه خدمة للإنسانية وليس إفساده وتدميره.

رابعاً: أن خلافة الله أمانة، أي أن خلافة الله في الناس (عدالة الحكم) أمانة. وخلافة الله في الطبيعة (المحافظة على البيئة) أمانة. والأمانة مسؤولية كبرى. ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (الأحزاب:٧٢).

خامساً: أن الله خلق الإنسان بحيث يقدر على استجلاء علوم الدنيا واستيعابها كلها. ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا﴾ (البقرة: ٣١). ولذلك حثّ الله الإنسان على أن يتفكر في خلقه وفي نفسه وفي الكون من حوله، حتى يدرك أن سقف العلم مرتفع وأن آفاقه واسعة، وأنه مهما اكتشف الإنسان من معادلات المعرفة فثمة مزيد يجب أن يعمل عقله وفكره على اكتشافه. ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ (الإسراء: ٨٥). ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾. (يوسف: ٧٦).

سادساً: خلق الله الإنسان ﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (التين: ٤) ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ (التغابن: ٣) من الخلية الحية بما

تحمله من مورّثات ووظائف، إلى العقل المفكر، وما يستطيع أن يصل إليه من آفاق المعرفة والقدرة على الإبداع والاستدلال. ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ (الإسـراء:٧٠)، والتكريم الإلهي هو أسمى درجات العلاقة بين الله الخالق والإنسان المخلوق.

إن احترام هذه المكرمات الإلهية والالتزام بها من شأنه أن يكبح جماح الصراعات التي تتجاوز حقوق الإنسان وتعتدي على كرامته. ومن شأنه أن يؤسس لسلام حقيقي يستمد أسسه ومقوماته من هذه الكرامة الإلهية.

وإذا كانت هناك قلة قليلة من المسلمين تتصرف بما يتناقض مع هذه القيم الإسلامية، فلا يعود ذلك إلى الإسلام. ولا يجوز تحميله وزر هذا التصرف.

ومن هنا تظهر أهمية التلازم بين حوار يجمع المسلمين وسواهم من أهل الثقافات والعقائد الدينية، وفك الارتباط وإزالة اللبس بين الإسلام الرسالة الإلهية السامية، والتصرفات السلوكية الفردية التي تتناقض معها.

الاستغلال السياسي: سياسة الخوف

وليام بيكر*

على مر التاريخ أودت الحروب بحياة عشرين ألف مليون من البشر، وكان القرن العشرين المنصرم من أكثر القرون دموية، إذ قضى ١٠٠ مليون شخص نتيجة الحروب التي نشبت بسبب التصرفات غير الأخلاقية، والأشكال السياسية للحكومات، وهي أشكال مبنية على النعرات القومية، والمادية، والإمبريالية. وظل التطبيق المستمر للاستغلال السياسي من أكثر العوامل التي دفعت هذه الحكومات والأمم لانتهاج هذه السياسات.

والتاريخ القديم مليء بالأمثلة الواضحة على صعود

* مؤسس ومدير المركز الإسلامي النصراني للسلام، وهي مؤسسة مهتمة بنشر السلام والتفاهم بين المسلمين والنصارى حول العالم. ألّف عدداً من الكتب، وشارك في العديد من البرامج الإذاعية والتلفزيونية العالمية مثل: سي ان ان CNN ، أيه بي سي ABC ، بي بي سي BBC ، والجزيرة وغيرها، وشارك في أكثر من ٥٠٠ محاضرة وحلقة نقاش ومؤتمر في الولايات المتحدة وبعض دول العالم. (**الولايات المتحدة**).

إمبراطوريات كبرى، هيمنت على رقعة واسعة من العالم، لكنها ما لبثت أن تلاشت وبقيت آثارها تاريخاً. فالإمبراطورية الرومانية – على سبيل المثال – تعد بالنسبة للكثير من المؤرخين مثالاً للأمة والشعب المتحضر، ومثالاً كذلك على الهيمنة والنفوذ. وللإمبراطورية الرومانية يعود الفضل في إهداء العالم اللغة اللاتينية، وهي أساس كل اللغات الغربية والأوروبية. وروما القديمة هي التي أسست لأنظمة القوانين الغربية والأوروبية، وما تزال العمارة الرومانية تلفت الأنظار، ولا يوجد لها في بعض الجوانب نظير في أي حضارة أو مجتمع قديم أو حديث.

لكن هذه الإمبراطورية التي كان لها إرث من الحضارة، والنظم، وأنظمة الحكم، والمعارف المتقدمة، يذكرها الناس بصورة خاصة في جهودها لغزو العالم واحتلاله وحكمه بواسطة الجيوش الماهرة، وفنون القتال الذي لا يحمل شفقة أو ليناً تجاه أولئك الذين يحاولون الدفاع عن بلدانهم، أو أولئك الذين يحاولون فقط إنقاذ حياة عائلاتهم والأبرياء من الناس.

ويقف مدرج «الكولوزيم» الروماني شاهداً على المعاملة غير الإنسانية والوحشية التي لا نظير لها، إذ تم تعذيب الرجال،

والنساء، والأطفال وعائلات بأكملها، قامت بتقطيعهم حيوانات متوحشة جائعة جلبت من القارة الأفريقية.

هيمنت روما على العالم قرابة ٤٠٠ عام، ولكنها تعرضت للدمار والخراب نتيجة الفساد الداخلي والانحطاط الأخلاقي.

وبالمثل أسهمت الإمبراطورية اليونانية القديمة في الحضارة والنظام والفلسفة والمعرفة. ويعتبر كل من أفلاطون Plato، وأرسطو Aristotle، وبلوتارخ Plutarch من بين الكثير من المثقفين اليونانيين الذين ما تزال كتاباتهم تُدرّس في المؤسسات الأكاديمية العالمية، وظل الإمبراطور اليوناني، يحكم هذه الإمبراطورية الشاسعة دون منازع. ولكن الإمبراطورية اليونانية عانت مما عانت منه الإمبراطورية الرومانية من تردٍّ أخلاقي وروحي، أدى إلى اضمحلالها وانهيارها كقوة عالمية ذات مجتمع متقدم. وفي القرون التي تلت ذلك، ظهرت إمبراطوريات وقوى وتلاشت، وهناك أخريات في طريقها للسقوط.

سياسة الخوف: نموذج جديد لقرن جديد

أضاف الفلاسفة اليونان العديد من الحقائق الإنسانية للعالم، ومن بين هذه الحقائق ما أصبح قاعدة من قواعد علم

النفس الحديث، ويتمثل هذا في القول: إن الإنسان عدو ما يجهله أو لا يفهمه. وهذا النوع من الخوف كان هو الآلية التي استخدمت للاستغلال السياسي في الكثير من الثقافات، والأديان، والأمم. وحتى يحدث الاستغلال، ويقوم بتبرير سياسة التدخل بكل نجاح، وفي معظم الحالات الاعتداء والاحتلال غير الأخلاقي وغير القانوني ضد الأبرياء من الشعوب والدول والأديان، فينبغي أن يتم زرع ثقافة الخوف بين مواطني الدولة التي يتم الاعتداء عليها. وهذا يتم من خلال الترديد المستمر للتهديدات التي تمثلها هذه الدولة، مما يعزز من موجة التبرير والدعم للتدخل، واللجوء للحرب والاحتلال والسيطرة على الثروات الطبيعية لهذه الدولة.

وبصفتي شاب ترعرع في أمريكا خلال ما سُمي بزمن «الحرب الباردة»، وهي المدة التي كانت كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي تتنافسان فيها على الهيمنة والنفوذ على بقية أمم العالم، وبالرغم من أنني لم ألتق بمواطن روسي، فقد كنت أخشاهم وأعتقد أنهم وبلدهم يمثلون تهديداً حقيقيّاً لأمريكا ولأسلوبنا في الحياة. وأتذكر جيداً تدريبات النجاة من الموت في المرحلة الابتدائية، عندما كان يتم تدريبنا على كيفية

أن نختبئ تحت طاولات الصف من أجل النجاة من تفجيرات بقنبلة ذرية، والتي كنا نخشى أن تقع في أي لحظة.

وكان الخوف حاضراً في تغطية الأحداث العالمية المتعلقة بالدولتين، الأمر الذي فتح الأبواب لاستغلال سياسي بواسطة الحكومتين والسياسيين. وبالرغم من أن العلاقات بين الدولتين قد تحسنت بصورة كبيرة، إلا أن سياسة الخوف والأنشطة المتعلقة بالاستغلال السياسي ظلت كما هي دون تغيير.

الاستغلال السياسي للإسلام: العدو الجديد للسلام

بعد أن تغيرت الأهداف الاقتصادية والسياسية لكل من الولايات المتحدة وروسيا، وأصبحت إمكانية حدوث دمار للجانبين بالأسلحة النووية حقيقة سياسية مقبولة، بدأ العالم العسكري الصناعي يبحث عن «عدو جديد»، ويا حبذا لو كان طرفاً يمكن وصفه بأنه يشكل تهديداً للقوتين العظميين وحلفائهما وعلى ذلك فهو يشكل تهديداً «للاستقرار والسلم العالمي». من هنا بدأت حملة استهداف الدين الإسلامي، أسرع الأديان انتشاراً في العالم. خلال الحرب الباردة، كان هناك فيلم مشهور يسمى «الروس قادمون The Russians are coming»، ولكن وحيث

إن هناك تقارباً بين العدوين السابقين، فقد ظهر شعار جديد: «المسلمون قادمون The Muslims are coming».

ومرة أخرى تنشط الدعاية في ترويج الخوف من الإسلام والمسلمين، ويؤدي الاستغلال السياسي مرة أخرى دوره في دعم السياسات المتمثلة في الحروب، والاحتلال، والاستيلاء على الثروات الخارجية المتمثلة في الموارد الطبيعية والمالية.

وسأذكر هنا مثالين من ضمن أمثلة كثيرة تحتوي الكثير من أساليب الغش والتدليس والكراهية والخوف من الإسلام.

المثال الأول ما قاله شون ستيل Shawn Steel، الرئيس السابق للحزب الجمهوري في ولاية كاليفورنيا California في أبريل من عام ٢٠٠٣م:

«هناك سرطان ينمو داخل الجالية الإسلامية، وهو داء يكره اليهود، ويكره الحرية، ويكره المجتمع الغربي. ينبغي تصحيح مرض الإسلام، فهو إما أن تقتله أو يقتلك».

أما جيرت ويلدرز Gert Wilders، فتحدث في كاليفورنيا بالولايات المتحدة في أبريل من عام ٢٠٠٩م، قائلاً:

«الإسلام لا يتفق مع حضارتنا الغربية وديمقراطيتنا، ولن يتفق معهما أبداً، لأن الإسلام لا يريد التعايش، بل يريد أن

يستسلم الآخرون له، ويقوم هو بوضع الأجندة كاملة. فالإسلام يعني استسلام غير المسلمين الكفار مثلي ومثلك للمسلمين، ولذا فينبغي ألا نفهم غير ذلك عن أهدافه».

وعلى المستوى الشخصي فإن خوفي من الإسلام والعرب سرعان ما تبدد عندما قضيت بعض الوقت، وأنا طالب أدرس علم الآثار وكنت أقوم بأعمال حفريات في فلسطين، وعلى وجه الخصوص في الضفة الغربية. لقد كان هناك حدثان وقعا لي، أثناء عملي جنباً إلى جنب ولقاءاتي مع فلسطينيين مسلمين ومسيحيين، جعلاني أتساءل عن كل هذا الهجوم ضد الإسلام والعرب.

الحدث الأول وقع في موقع يسمى «تيكوا Tekoa»، وهو موقع قديم يقع على بعد بضعة أميال من بيت لحم، المدينة التي وُلد فيها المسيح عيسى عليه السلام. فأثناء عملي في أحد الأضرحة في هذا المكان النائي، سمعت أجراساً ثبتت على ذيول الضأن، وعندما خرجت من الضريح الذي كنت أعمل فيه وحيداً لعدة أيام خلت، شاهدت راعياً فلسطينياً يستعد لأداة صلاة العصر، وقد راقبت ذاك البدوي يجثو على ركبتيه رغم شدة حرارة الطقس، ويواصل صلاته. ولأنني - كنصراني - كنت قد درست وتعلمت اللغة العربية، فقد تأثرت كثيراً بإخلاصه وشكره لخالقه

أثناء الصلاة. لقد أصبحت أنا وهذا الرجل صديقين، إذ كان يحضر لي الشاي كل يوم ويجلس معي في الضريح. لم تكن هذه الصلاة التي تؤدى من أجل الهيمنة على العالم، وبالطبع فهي لم تكن صلاة شخص إرهابي، أو شخص يحمل كراهية للغرب وثقافته ودياناته.

أما الحدث الآخر فقد وقع أثناء المشاركة في أعمال حفرية كبرى في الجدار الجنوبي الغربي من جبل الهيكل، أو الحرم القدسي الشريف. فبمجرد سماع الأذان يدعو لصلاة العصر، حتى توقف جميع زملائي الفلسطينيين عن العمل وذهبوا لأداء الصلاة في قبة الصخرة. وقد دعوني هذه المرة لمشاركتهم، فوافقت على الفور. ولم تكن هناك صلاة واحدة أو دعاء واحد يشجع على العنف، أو الإرهاب ضد الأمم، أو الأديان، أو الشعوب الأخرى. وبفضل هذه التجارب وغيرها الكثير بدأت أحسن من مستواي في اللغة العربية عن طريق قراءة القرآن ومناقشة الكثير من رجال الدين المسلمين والنصارى.

وكلما تعلمت المزيد عن تعاليم الإسلام، تحررت أكثر من سلطة الخوف التي ظل منسوجاً في المؤسسات التعليمية الغربية.

ففي عام ١٩٨٢م كتبت أول كتاب لي حول الصراع الفلسطيني

الإسرائيلي، وكـان الكتاب بعنوان «سرقة أمـة Theft of a Nation»، وتناول تاريخ المنطقة قبل إيجاد دولة إسرائيل، ويحدد السكان الأصليين، ويفحص تعاليم الإنجيل التي تم تحريفها لدعم فكرة قيام دولـة إسرائيل واستمرارها والاستيلاء على الأراضي والممتلكات الفلسطينية. وقد عرضت في هذا الكتاب ما أعتقد أنه الإجراءات الحقيقية والنهائية التي يمكن أن تؤدي إلـى إزالـة العوامل التي تقف ضد أي تحركات نحو السلام، والمصالحة، والعدالة في منطقة الشرق الأوسط وجزء كبير من العالم الحديث.

وفي عام ١٩٨٣م دُعيت إلى العاصمة السورية دمشق والتقيت بعدد من الزعماء الدينيين والسياسيين. وكـان لأحـد هذه الاجتماعات الأثر البالغ على حياتي، حتى إنني ركزت ما بقي من عمري في الكتابة والتحدث وتوضيح التشويه والاستغلال السياسي الذي طال الإسلام وتأليف الكتب التي تؤكد على المشترك بين الديانتين الرئيستين، وهما الإسلام والنصرانية، واللتان يعتنقهما أكثر من نصف سكان العالم.

وعندما كنت في دمشق دُعيت لـزيارة ولقاء الشيخ أحمد كفتارو، الذي يعد من أكثر العلماء المسلمين الذين حظوا بالحب،

وأكثرهم سياحة في الأرض. وكان الشيخ كفتارو من المدافعين عن السلام العالمي، وهو صديق البابا بولس الثاني، ومؤلف وعالم معروف حول العالم. وقد استقبلني في مزرعته على بعد أميال قليلة من المدينة، وبعد الضيافة العربية المعتادة وتناول القهوة والفواكه، بدأنا النقاش حول ديانتينا، الإسلام والنصرانية. وكان مجلسه الضخم ممتلئاً بالرجال والنساء، ورجال الدين، إضافة إلى زعماء محليين وأساتذة جامعات وإداريين. استمر نقاشنا قرابة ثماني ساعات وامتد حتى ساعات الصباح الأولى.

لقد تطرقنا بالنقاش لشتى الموضوعات، وقد تركز جل النقاش على القرآن والإنجيل، وكنت في كل مرة أتطرق لمسائل الخلاف بين الديانتين، يرد الشيخ كفتارو بإيراد المسائل المشتركة. وعندما اقتربت جلستنا على الانتهاء أوردت الملاحظة التالية:

«أعتقد أن الفرق الحقيقي بيننا هو أنكم لا توقرون أو تحبون المسيح عيسى كما نفعل نحن النصارى».

وهنا وضع الشيخ أحمد كفتارو يده على كتفي وقال وهو ينظر مليّاً في عينيّ:

«أخي الحبيب، من المستحيل أن تكون مسلماً حقاً إذا لم تحب وتوقر سيدنا عيسى».

وعندما كان يودعني ونحن في الطريق إلى سيارتي، أخذني بالأحضان ثانية حتى لامست لحيته البيضاء وجهي، وقال لي:

«إننا في معسكر واحد يا أخي».

في ذلك المساء كنت في الطائرة في رحلة إلى العاصمة اللبنانية بيروت، وفي أثناء الرحلة كتبت في أحد دفاتري: «نحن في معسكر واحد». وكتبت اختصار عبارة «النصارى والمسلمون من أجل السلام Christians and Muslims for peace»، ومن هنا ولدت مؤسستي المسماة «معسكر Camp» والتي يحمل عنوان موقعها على شبكة الإنترنت (campintl.org or.com).

وقد بقيت أنا والشيخ أحمد كفتارو أصدقاء حميمين حتى وفاته. وكنتيجة مباشرة لذاك الاجتماع والنقاش، وجدت نفسي أهتم بتناول المسائل التي تتعلق بالصراع بين المسلمين والنصارى، وأطلب من الطرفين التركيز على الأمور المشتركة، والحاجة لإنهاء الاقتتال، والعمل معاً لمساعدة أولئك الذين هم بحاجة للمساعدة من الجانبين. وقد تم افتتاح فروع لمؤسسة «معسكر» في كل من الفلبين، وأفريقيا، وأوروبا، وهناك فروع يجري التخطيط لافتتاحها في مناطق أخرى من العالم.

إن عملية الاستغلال السياسي للأمم والشعوب والأديان يمكن أن يتم الحد منها، إذا ما تمت السيطرة على الخوف والقضاء عليه في كل أمة وثقافة وعرق. إنه الخوف الذي يولّد الكراهية، و الأحكام المسبقة، والعنصرية، وعدم الأمن مما يؤدي إلى الصراع المسلح. وتعدّ فلسطين، ولبنان، والعراق، وأفغانستان، وكشمير، والبوسنة، والشيشان أمثلة قليلة على إراقة الدماء التي لا نهاية لها والمعاناة التي يعيشها مواطنون في هذا العالم كانوا ضحايا ما رأيت أن أسميه «المعسكر العالمي الصناعي العسكري». وببساطة يمكن القول: إن هناك الكثير من الأرباح المادية التي يتم الحصول عليها من خلال استمرار الصراعات الراهنة وخلق صراعات جديدة من خلال تطبيق الاستغلال السياسي، مما يجعل المرء يُسلّم أن عالمنا سيعاني باستمرار من حروب أبدية لسلام أبدي، تضمن الربح الدائم.

إن الجهل هو عدو الحقيقة، وهذا الجهل هو «الشريك» الآخر الذي يستخدم لتحقيق الاستغلال جنباً إلى جنب مع الخوف. فالخوف والجهل هما الأسلحة الثنائية، واللذان إن اجتمعا يجعلان من الاستغلال السياسي أمراً ممكناً. وكما

أشرت من قبل فإن الافتقار لمعرفة صحيحة ومعاصرة عن أوروبـا الشرقية، خصوصاً من قبل الاتحـاد السوفيتي، قد جعلت من الحرب الباردة التي استمرت خمسة وخمسين عاماً أمراً ممكناً.

وبالمثل فـإن الجهل بحقيقة الإسلام بين كل من المسلمين وغير المسلمين، يؤدي بأولئك الذين يبحثون عن تبرير للعنف والإرهـاب والكراهية وشن الحروب ضد الدول أو الشعوب أو الأديان، يؤدي بهم للحصول على مؤيدين وأتباع يروجون للخوف ويؤيدون التطبيق الحتمي للاستغلال السياسي.

وعنـدمـا كنـت ذات مـرة متـحـدثـاً زائــراً في كلية لندن للاقتصاد، كان الموضوع الـذي تحدثت فيه هـو: «الإسلام والنصرانية: تصادم أم تحالف». وقد بيّنت في حديثي ذاك أنني كأمريكي نصراني كتبت عدة كتب عن معاناة المسلمين البريئين تحت وطأة الاحتلال العسكري، وكذلك الوضع في فلسطين وكشمير.

حدّثت الحضور عن التهديدات بالموت التي لم تنحصر في شخصي فقط، بل وصلت إلى أسرتي، إضافة إلى المحاولات الفعلية التي استهدفت حياتي. لماذا؟ لأنني ببساطة تجرأت

على تأليف كتب موثقة كاشفاً الإرهابيين الحقيقيين المحتلين، وهـم إسرائيل والهند، وليس المواطنين المسلمين في كلتا الدولتين. وعندما ذكرت ذلك، هبَّ سريعاً أربعة من الطلاب الآسيويين مقاطعين حديثي، قائلين إن الإسـلام والأمة ليسا بحاجة إلى أمريكي نصراني للدفاع عنهما. وعندما طلبت منهم أن يوضحوا للحضور العوامل التي تقف خلف عمليات الاحتلال الراهنة، وما هي الظروف التي يعيشها كل من الفلسطينيين والكشميريين، لاذوا بالصمت، فهؤلاء الشباب لم يفضحوا جهلهم عن هـذا الاحتـلال، ولكنهم أيضاً قد فضحوا جهلهم بالإسلام فيما يتعلق بالتصرف مع النصارى:

﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (العنكبوت – الآية ٤٦).

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُوَاْ إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ (سورة المائدة- ألآية ٨٢).

﴿ لَيْسُواْ سَوَاء مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللّهِ آنَاء اللَّيْلِ

وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴾ (سورة المائدة- الآيات ١١٣-١١٥).

لكن من المحزن أن وجوه الإرهابيين وأصواتهم هي التي لا تعرف حقيقة تعاليم الإسلام، ولكنهم متأثرون بقادة ومعلمين من ذوي التوجهات السياسية الباطلة. إنها وجوههم وأصواتهم التي تُرى وتُسمع عبر العالم غير الإسلامي.

وبالمثل فإن الكثير من الذين يزعمون أنهم زعماء للنصرانية، ظلوا يجهلون التعاليم الأساسية للإنجيل، الذي ينص على أن (على النصارى أن يحبوا ويحترموا ويقدروا ويحيوا كل شخص بالسلام).

إن النصارى الحقيقيين المطيعين هم صُناع السلام. وليس هناك نص في الإنجيل يبارك أو يُعظّم أو يدعم الحرب، أو الاحتلال، الاستغلال السياسي. ثم إن معظم النصارى، مثلهم مثل إخوانهم المسلمين، مخطئون في عدم تعلم التعاليم الحقيقية للنصرانية واتباعها.

المبادرة السعودية للسلام والحوار

إنني مقتنع أن إطلاق المبادرة السعودية للحوار بين أتباع الأديـان ستثبت أنها إحدى أهم المبادرات التي تبلورت في القرن الحادي والعشرين. إن عملية جمع الثقافات المتعددة وممثلين لشعوب العـالم من أجـل تبـادل الآراء والأفكار ومعرفة بعضهم بعضاً، يتسق مع هدف القضاء على العاملين الرئيسيين للاستغلال السياسي، وهـذان العاملان هما الخوف والجهل.

عشر سنوات مضت منذ دخول العالم القرن الجديد، ومعظم مواطني العالم يحدوهم الأمل أن يشهد هذا القرن الجديد نهاية الحروب، والاحتلال، والكراهية وعدم التسامح. ولكن يبدو أن العالم لم يتعلم من التاريخ الدروس الحقيقية لشن الحرب على الآخر. فالسياسيون والتجمع العسكري في العالم يبحثون عن أهـداف جديدة، ويركزون على الدول الصغيرة التي لا تشكل تهديداً، ولكنها تمتلك مصادر هائلة من الطاقة مثل البترول، والغاز الطبيعي، واليورانيوم، والمعادن الثمينة.

إن القوى العظمى، وتلك التي تمتلك قـدرات أقل من أجل تطوير أسلحة نووية، تتنافس لتحقيق تفوق تقني في الفضاء

لاعتقادها أن العالم يمكن السيطرة عليه من خلال التهديد بالهجوم، أو حتى التلاشي بسبب أسلحة الموت المرعبة.

هناك حاجة الآن للمبادرة السعودية للحوار، فدعوة جميع زعماء الأديان، والأكاديميين والسياسيين، تُعدّ دعوة للبحث عن طريق للعيش بسلام، مع احترام متبادل وتحقيق العدل والحرية لجميع شعوب العالم.

تمثّل المبادرة السعودية للحوار دعوة للشعوب والدول للالتقاء معاً والإقرار بنقاط الاختلاف والخلاف بينهم، وكذلك البحث عن واقع مشترك كشركاء في العالم.

هناك مثل قديم يقول: «إن الحرب تُخلّف للدولة ثلاثة جيوش: حزنى، وكسيحين، ولصوص.»

وقال ونستون تشرشل: «أول ضحايا الحرب هي الحقيقة».

من هنا فإن على الزعماء الدينيين، مثلهم مثل زعمائهم السياسيين، أن يكفوا عن توظيف الاستغلال السياسي في محاولة للقضاء على المعتقدات والأديان الأخرى، وعليهم أن يتوقفوا عن التركيز على التحالف بدلاً عن العمل على أن يتحوّل الآخر لاعتناق نفس المعتقد.

لديّ حلم

هو حلم أن يجد المؤمنون من كل الأديـان بعضُهم بعضاً، وعندما يجدون بعضُهم بعضاً يساعد كل منهم الآخر على كتابة تاريخ جديد، عهد جديد للعالم، من التصادم إلى التحالف، من العداوة إلى الصداقة، من عدم التسامح إلى التسامح، وأن يكون المؤمنون الحقيقيون شركاء في السلام.

الحوار والاستغلال السياسي

جف جيتس*

يتطلب القضاء على الاستغلال السياسي حصول المتضررين منه على الأدوات التي تمكنهم من الرؤية الكاملة لأبعاد هذا الاستغلال. لكن، وحتى يتم إبراز طرق الاستغلال وأساليبه وكشف مصادره بكل شفافية ، فإن تحقيق الأمن والسلم سيبقى بعيد المنال.

ومما لاشك فيه أن الحوار بين أتباع الأديان يمكن أن يساعد على حل هذه المشكلة ، بشرط أن يوضح الحوار كيفية قيام الفكر

* مؤلف، ومحامي ومستشار حكومي. يعمل مستشاراً لمتخذي قرار في ٣٥ دولة. عمل لمدة سبع سنوات مستشاراً للجنة المالية بمجلس الشيوخ الأمريكي. من مؤلفاته كتاب: (الجُرم بالتواطؤ: كيف قاد الغش وخداع النفس أمريكا للحرب Guilt by Association: How Deception and Self-Deceit Took America to War)، و (الديمقراطية في خطر: كيف يمكن إنقاذ الشارع من وول ستريت Democracy at Risk: Rescuing Main Street From Wall Street)، و (حلول الملكية: نحو مشاركة رأسمالية في القرن الحادي والعشرين The Ownership Solution: Toward a Shared Capitalism for the 21st Century). (**الولايات المتحدة**) .

بمعالجة أي سلوك يجنح نحو الاستغلال. سأتناول هنا كيف ينشط هذا الاستغلال بين المستفيدين منه، كما سأستعرض بعض الأمثلة ذات العلاقة بأحداث معاصرة، ومن ثم أقترح الحلول الممكنة للقضاء على مشكلة الاستغلال السياسي للحوار.

ساحة الصراع: إعادة تعريف

يُعد مجال الوعي المشترك هو ساحة الصراع في القرن الحادي والعشرين، إذ إن مسرح العمليات هو مكان استقرار الآراء المتفق عليها، حيث يتم تشكيل الحقائق المقبولة عموماً. وفي هذا المجال غير الملموس يتم استبدال الحقائق بالدرجة التي تؤدي إلى خداع الجماهير المستهدفة لتصديق ما يطرح عليها.

وباختصار فإن المستغلِّين يستهدفون عقلية الجمهور، فالبيئة العقلية توفر ساحة اللعب لأولئك المهرة في حمل الآخرين على اعتناقهم بحرية الأفكار التي تسعى لتقويض حريتهم. وحتى تكون هذه العمليات السيكولوجية واضحة للناس، فإن المعتقدات المغرية سيتسمر نشرها من أجل التلاعب السياسي على حساب الفئات المستغَلَّة.

إن استخدام الخداع كوسيلة للتحريض على الصراعات، يقدم مثالاً كلاسيكياً على كيف أن الفكر يتم استغلاله من أجل استبعاد الحقائق على مرأى من الجميع. ولعلنا نتذكر الازدواجية التي سبقت غزو العراق عام ٢٠٠٣، فنحن الأمريكيون قد خُدعنا عندما اعتقدنا أن العراق يمتلك أسلحة للدمار الشامل، وأنه حدث اجتماع بين قيادات عراقية مع القاعدة في مدينة براغ، وأن هناك معامل للأسلحة البيولوجية المتنقلة في العراق، وحدوث اتصالات على مستوى عالٍ بين شخصيات نافذة في النظام العراقي وتنظيم القاعدة، وقيام الحكومة العراقية بشراء مادة اليورانيوم من النيجر. وعلى الرغم من أن جميع هذه المعلومات كاذبة، إلا أن المزاعم الاستخباراتية المضللة كانت هي الصوت الأعلى الذي هيمن على الحوار السياسي، الذي أفضى - بدوره - إلى الغزو الأمريكي للعراق.

وتلعب العاطفة دوراً في عملية الخداع والتزييف، فبعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م عاش الأمريكيون الصدمة وشعروا بالحزن والغضب، وقد ساعدت هذه الحال على زعزعة الحقائق، وكانت حالة الهياج والاضطراب الداخلي هذه بمثابة قوة مضاعفة في التأثير على عملية اتخاذ القرار.

إن عملية صنع القرار السياسي ليست أفضل من المعلومات التي يعتمد عليها متخذو القرار، وهذا هو السبب الذي جعل من التحريض على المعتقدات الخاطئة وسيلة من وسائل الاستغلال السياسي؛ وهو السبب أيضاً الذي جعل من وسائل الإعلام – ولوقت طويل – تؤدي دوراً محورياً في نجاح عملية التلاعب بالعقول. ومن أجل أن يؤدي الحوار بين أتباع الأديان دوراً في تشكيل مستقبل يتسم بالشعور بالإنسانية، فإنه يتوجب أن تصبح كيفية صياغة مثل هذه العمليات السيكولوجية معروفة على نطاق واسع.

إن الصراعات التي أفرزتها هذه الازدواجية قد عرّضت عملية التحول لمجتمع المعرفة للخطر. ومع هذا فإن المعرفة يمكن أن تُنشر لتمثل حماية للحوار السياسي من هذا الاستغلال. وبوجود الأدوات اللازمة لكشف التلاعب بالعواطف في الوقت المناسب، فإن الجمهور الواعي يمكن أن يكون وسيلة لكشف هذا الاعتداء والاستغلال ومساءلة الجهات التي تقف وراءها.

الحرب القديمة في عالم اليوم

الحقائق هي الأساس الذي يعتمد عليه حكم القانون، وعملية استبدال الحقائق بالاعتقادات تعود إلى ما قبل عصر التنوير

عندما لم يكن الحـوار المبني على الحقائق والمعرفة العملية موجوداً لمواجهة التلاعب بالدين. تخيّل كيف أن السلم قد تعرض للخطر بواسطة دولة عظمى(الولايات المتحدة) تمتلك سلاحاً نووياً قامت على اعتقادات خاطئة وأدت إلى غزو دولة لا تُشكّل تهديداً لها أو للعالم المحيط بها. وإذا كانت نتائج هذا الاستغلال السياسي (سفك الدماء، والموت، والمعاناة على نطاق واسع) ليست من بقايا العصور المظلمة فما تكون إذن؟

لقد نجحت هـذه الخيانة من خـلال استغلال الحريات التي يقصد منها حماية الحرية بما في ذلك حرية الصحافة، وحرية التعبير، والحرية الدينية. وفي إطار شبكة لا مثيل لها من الازدواجية التي تكتنف العملية السياسية على أساس مستمر ومتزايد، فإن الحوار المبني على معلومات خاطئة لا يؤدي إلا تأجيج الأجندة المسبقة والدفع بها قُدماً.

لقد انتقلت محاسن العمليات السيكولوجية إلى المقاتلين الأقـدر على التـأثير على البيئة العقلية. ولـذا فـإن الـدور الاستراتيجي في عملية الخداع هذه قد تمت من خلال الانحياز غير المعلن في وسائل الإعـلام. فالعملاء داخل وزارة الدفاع الأمريكية قد ساعدوا في إيجاد نوع من «الصدى المؤثر» الذي

مهد لغزو العراق من خلال تضليل المشرعين. وقد أكّد هذا الخداع أن متخذي القرار قد وقعوا ضحية تقارير استخباراتية وإعلامية كاذبة ، في الوقت الذي كانوا يعيشون مرحلة ما بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر المؤلمة.

تجلى دافع الانحياز الإعلامي في عبارة صاغها وزير الدفاع الأمريكي روبرت جيتس في أكتوبر من عام ٢٠٠٧م. ففي إشارته إلى المقاتلين الأكثر إشكالية عند شن «حرب غير تقليدية» وصف جيتس، وهو المدير السابق لوكالة الاستخبارات الأمريكية، هؤلاء الأعداء أنهم (الطابور الخامس). وفي عصر المعلومات فإن المستغلين السياسيين يوزعون عملياتهم بين الجمهور المستهدف والمعلومات المطلوبة للحصول على موافقة هذا الجمهور. وبالإضافة إلى وسائل الإعلام، فهناك عوامل أخرى تؤثر في تضليل الرأي العام بهدف الاستغلال السياسي، وتشمل: الثقافة الشعبية، والمؤسسات الأكاديمية، ومراكز الدراسات، والسياسة.

فيما يلي سأقوم بإلقاء الضوء على كل واحد من هذه العوامل ممثلاً بالسلوك الإسرائيلي والسلوك الموالي لإسرائيل في الولايات المتحدة لتوضيح كيف أن الحوار المبني على المعلومة

في محاولة لإضفاء العقلانية على عملية اتخاذ القرار قد تم التلاعب به من الأساس.

الثقافة الشعبية: في عقد الخمسينيات من القرن المنصرم كلّف «اد جوتيليب Ed Gottlieb»، اختصاصي العلاقات العامة في مدينة نيويورك،الروائي «ليون أوريس Leon Uris » بكتابة «سفر الخروج Exodus»، وهي قصة رومانسية عن تأسيس دولة إسرائيل. وقد أسهم نشر هذه القصة في طمس واقع مظلم وهو قيام المتعصبين دينياً بممارسة التطهير العرقي في أكثر من ٤٠٠ قرية فلسطينية. إضافة إلى ذلك فإن إسرائيل كانت قد لعبت دوراً محورياً في إحداث أزمة قناة السويس عام ١٩٥٦م. وقد أدى دور تل أبيب في ذاك الصراع إلى قيام الرئيس إيزنهاور Eisenhower، عندما أدرك سيطرة إسرائيل على الكونغرس الأمريكي، بتوجيه نداء للشعب الأمريكي مباشرة عبر التلفزيون.

ووسط حملة ضخمة من العلاقات العامة تُرجمت هذه القصة إلى ٥٠ لغة، وأُنتج منها فيلم من بطولة بول نيومان Paul Newman وايفا ماري سانت Eva Marie Saint. وقد حصل المغني الإيطالي سال مينيو Sal Mineo على جائزة الأكاديمية

عن دوره الذي لعبه في هذا الفيلم وهو عبارة عن مهاجر يهودي. وقد أثرت هذه القصة والفيلم والزخم الإعلامي الذي حظيا به في إيجاد معتقد سائد مفاده أن الإسرائيليين هم الأبطال وأن العرب هم الأشرار.

إن مسألة استبدال الحقائق بالخيال تتطلب مدة من الزمن لإعداد الرأي العام بحيث تتحول عنده الافتراءات إلى حقائق، أو مزج بعض الحقائق مع الخيال بطريقة تمكن من إقناع الجماهير بقبول أجندة سياسية تتناقض مع الحقائق. وفي اللغة السياسية يتم استخدام وسائل الإعلام والثقافة الشعبية من أجل تعزيز لغة الخطاب.

كان خطاب الرئيس باراك أوباما Barack Obama في القاهرة في يونيو ٢٠٠٩م - على سبيل المثال- مقصود به الترويج في العالم الإسلامي لنهج جديد في العلاقات الخارجية للإدارة الأمريكية الجديدة، بما في ذلك موقفها من الصراع الإسرائيلي الفلسطيني. ولكن أصحاب النفوذ في الرئاسة نقلوا الرئيس مباشرة من القاهرة إلى ألمانيا للاحتفال بذكرى المحرقة والتقاط صور في معسكر «بوشنوالد Buchenwald» للاعتقال في العهد النازي.

والسؤالان اللذان يبرزان هنا في هذا الوضع الذي تُشكّل فيه وسائل الإعلام والثقافة الشعبية التصورات الجيوسياسية هما:

أي من الصورتين أحدثت أثراً أكبر؟

ما الخطاب الذي كان أكثر أهمية وتأثيرًا؟

المؤسسات الأكاديمية: عادة ما تبدأ عملية وضع إطار للحوار عن طريق التعليم يتم زرع الحقائق الأكثر قبولاً في عقول الطلاب من قبل شخصيات ذات نفوذ وسلطة. وكما حدث عند اندماج الكنيسة والسلطة في عهد الإمبراطورية الرومانية في القرن الرابع الميلادي، فإن كل من يتجرأ على تحدي الحقائق ذات القبول العام فسيجد نفسه معرضاً للاتهام بأنه زنديق وعدو للدولة، هذه هي الحالة الذهنية المشتركة التي كانت شائعة على نطاق واسع.

وتعود أصول إجماع الآراء إلى الاتجاه الأكاديمي، فخلال نصف القرن الماضي عكفت الجامعات على مستوى العالم على تدريس طلابها الاعتقاد بأن الحرية المالية هي التي تؤدي إلى الحرية الشخصية. وانصب الحوار الأكاديمي في الاقتصاد على الكيفية التي يُستغل بها المال بطريقة أفضل من أجل الحصول على أعلى عائد منه. ومع ذلك كانت هناك جماعات ذات نفوذ مالي تعمل

دون قيود على تكوين مجموعات صغيرة من الأشخاص من ذوي القوة والسلطة لتركيز الثروة والدخل في أيديهم في جميع أنحاء العالم، مما أدى إلى تقويض الديمقراطيات والأسواق. فتعاليم «مدرسة شيكاغو» الاقتصادية – على سبيل المثال- قد توسعت على نطاق عالمي، وتم تغيير مسماها إلى «إجماع واشنطن». والاعتقاد المشترك على نطاق واسع هو أن عملية اتخاذ القرار ينبغي أن تدور حول قيم المال، الأمر الذي أدى إلى إضعاف الاقتصاد الأمريكي. وهذه النظرة الضيقة قد شوهت من سمعة الولايات المتحدة، إذ إن الأكاديميين الأمريكيين يصرون على عولمة هذا الاعتقاد الأحادي.

ولذلك فإن الحوار حول التنمية الاقتصادية لا يزال تحكمه وجهة النظر هذه. وكلما انتشرت مجموعات الضغط والنفوذ على نطاق العالم، كلما اتسعت دائرة الفقر ، وانكمشت الطبقة الوسطى، وفي الوقت نفسه أدى التعويل على القيم المالية والركون إليها إلى أن تحل هذه القيم محل القيم الضرورية لتعافي المجتمعات مثل التعاطف، والانسجام، والاستقرار، والاستدامة البيئية وغيرها. وكلما تعمقت عوامل الاختلال هذه كلما أصبح الحوار غير مجدٍ، إذ ينخرط متخذو القرار في حل

المشكلات التي باتت تهدد المجتمع من جراء هذه النزعة المادية، دون إيجاد الفرصة للتساؤل عن فحوى المعتقدات الصحيحة.

مراكز الدراسات: عند شن حرب على البيئة النفسية، فإن مراكز الدراسات تؤدي دوراً رئيساً من خلال بلورة القضايا وتأطير النقاش وتوفير موضوعات للتعليق والحوار. لقد بدأت فكرة كتاب: صدام الحضارات The Clash of Civilizations لمؤلفه صمويل هننجتون Samuel Huntingtons، أول مرة من خلال مقال نشر عام ١٩٩٣م في مجلة «الشؤون الخارجية Foreign Affairs»، وهي مجلة ذائعة الصيت يصدرها مجلس العلاقات الخارجية Council on Foreign Relations في الولايات المتحدة . وعند ظهور فكرة هذه المقالة في كتاب عام ١٩٩٦م، سارعت أكثر من مائة من المؤسسات غير الحكومية، بما فيها مراكز للدراسات والبحوث، إلى إيجاد توافق جديد من خلال ترويجها لفكرة الصراع التي وردت في هذه الأطروحة.

وعندما انتقل الحوار السياسي من الحرب الباردة إلى الحرب العالمية على الإرهاب، قام عدد من المحافظين الجدد الأمريكيين عام ١٩٩٦م بنشر وثيقة استراتيجية لرئيس

الوزراء الإسرائيلي في ذلك الوقت بنيامين نتنياهو Benjamin Netanyahu بعنوان (بداية واضحة.. استراتيجية جديدة لتأمين الكيان A Clean Break – A New Strategy for Securing the Realm)، والمقصود بالكيان هنا إسرائيل. وقد تم تعيين ريتشارد بيرل Richard Perle، عضو المجلس الاستشاري لسياسة وزارة الدفاع الأمريكية وأبرز مؤلفي هذه الوثيقة، رئيساً لهذا المجلس عام ٢٠٠١م. ومن أبرز ما احتوته هذه الوثيقة إنهاء حكم الرئيس العراقي صدام حسين بوصفه أكبر معوق لتنفيذ أجندة التوسع الصهيوني.

وقد اتضح الدور الخفي والمتحيز لمراكز الدراسات عندما قام كالي لاسن Kalle Lasn ، محرر مجلة (Adbusters)، في مارس من عام ٢٠٠٤م بنشر دراسة ميدانية عن ٥٠ من أبرز المحافظين الجدد الداعين لغزو العراق. وبالرغم من أن نسبة (١,٧٪) من سكان الولايات المتحدة هم من اليهود، إلا أن ٢٦ أو ٥٢ في المائة من أبرز المحافظين الجدد هم من اليهود الغربيين (Ashkenazim). ولأن كالي لاسن من استونيا (Estonian) ومسؤول إعلانات سابق في نيويورك، فقد كان يعرف كيف يمكن التلاعب بالبيئة النفسية. فمقالته المشار إليها عرضت الحقائق

على شكل سؤال هو: لماذا لا يقول أي شخص أن هذه المجموعة هم يهود؟ وبطرحه لهذا السؤال تعرض للهجوم بوصفه «معادٍ للسامية».

السياسة: ظلت الأمور المتعلقة بالديمقراطية والأسواق محور الحـوار على مر الأجيـال. وظل هنـاك نـوع من الاحـترام منذ ما قبل العصور الرومانية وحتى اليوم للأمور السياسية التي تكرس الحوار والنقاش. وحيث إن هناك حكومات برزت كممثلة للقاعدة الشعبية العريضة، فقد زادت الدوافع التي تستهدف التلاعب بعقول صناع القرار كقوة تزيد من عدد أفراد الطابور الخامس.

وبتأطير النقاش والتلاعب بالنصوص، فإن الماهرين في الاستغلال السياسي ذوي المستويات والمناصب الرفيعة يمكن أن يعملوا خارج القيادة، كما ثبت ذلك عندما قام الجيش الأمريكي بغزو العراق تحت ذرائع كاذبة.

تشكيل الحوار بعد الحرب العالمية الثانية

بعد الحرب العالمية الثانية كانت الولايات المتحدة موطناً لنحو ٥٠٪ من القوة الإنتاجية العالمية، وهـذه القوة المالية

ضمنت بقاء هذه القوة ذات هيمنة دولية لعقود. وفي مايو من عام ١٩٤٨م قام الرئيس هاري ترومان Harry Truman بالاعتراف بالكيان اليهودي المتطرف رغم المعارضة القوية من وزير الخارجية جورج مارشال George Marshall، ورؤساء هيئات الأركان، ووكالة الاستخبارات المركزية وكثير من أعضاء السلك الدبلوماسي الأمريكيين.

وبحلول عام ١٩٦٢ أصبح السناتور جي. وليام فولبرايت J.William Fulbright ، رئيس لجنة الشؤون الخارجية، أكثر اهتماماً بدور إسرائيل في السياسة الأمريكية، حتى أنه فكر في إرغام اللوبي الإسرائيلي على تسجيله كما هو ويظل عميلاً أجنبياً. لكن فولبرايت ووزير العدل روبرت كينيدي Robert Kennedy أخفقا في هذه المهمة. وفي عام ١٩٦٣م كان الرئيس جون كينيدي John F. Kennedy يفكر في إرغام إسرائيل على فتح مفاعل ديمونة Dimona النووي للتفتيش الدولي. لكن بعد وفاته في نوفمبر من عام ١٩٦٣م، أصبح نائب الرئيس ليندون جونسون Lyndon Johnson أقل اهتماماً بترسانة تل أبيب النووية في المنطقة. وعندما شرع روبرت كينيدي في الترشح للرئاسة عن الحزب الديمقراطي عام

١٩٦٨م، لم يكن واضحاً ما إن كان سيقتفي أثر أخيه ويعمل على إغلاق الترسانة النووية الإسرائيلية ويتضامن مع فولبرايت في الإصرار على تسجيل اللوبي الإسرائيلي كعميل أجنبي. لكن موته على يد مهاجر فلسطيني مهدت السبيل ليتولى ريتشارد نيكسون Richard Nixon سدة الحكم. وبضغط من جولدا مائير Golda Meir ، وافق نيكسون عام ١٩٦٩م على منح إسرائيل صفة وضع «غامض ambiguous» يتمثل في احتفاظها بأسلحتها النووية دون الاعتراف بترسانتها. وقد ظلت هذه الأحداث تشكل الحوار الجغرافي السياسي وتلقي بتداعياتها على الأمن والاستقرار في منطقة الشرق الأوسط وبقية أنحاء العالم.

الحسابات الرياضية للاستغلال السياسي

يشتمل الاستغلال السياسي على حسابات رياضية ، ويجب أن تُفهم هذه الحسابات من أجل تحديد المصدر الذي يُمكّن من التلاعب بالعقول على نطاق واسع. والأدلة على حدوث انتهاكات مماثلة عبر الأجيال تشير إلى أن هذا الخداع قد ظل منتظماً ولم يتغير.

تنكشف المؤامرات عندما يقوم شخص ما ببيع معلومات عن هذه المؤامرات لوسائل الإعلام. وبالمثل فإنه قد ثبت أنه من الصعب الحفاظ على الاتفاقيات على مر الزمن. ولكن كيف صمدت أساليب الاستغلال السياسي عبر الأجيال؟ وكيف ظل هذا الخداع مستمراً بصورة واضحة ومع ذلك أمنِ العقاب؟

إن المستغلين المحترفين يعتمدون على نظرية النماذج الرياضية لتوقع الاستجابة لاستفزازاتهم. وتصبح ردود الأفعال قابلة للتنبؤ ضمن نطاق مقبول من الاحتمالات. حصل روبرت جون أومان Robert J. Aumann ، عالم الرياضيات والاقتصادي الإسرائيلي، على جائزة نوبل في علم الاقتصاد عام ٢٠٠٥م وهو المؤسس المشارك لمركز العقلانية في الجامعة العبرية. قال جون مان، الذي يعيش في القدس: (إن المدرسة الفكرية التي أسسناها في إسرائيل قد حوّلت إسرائيل إلى حُجة في هذا المجال).

فمن منظور الاحتمالات الإحصائية، كيف سيكون من الصعب لنموذج رياضي أن يتوقع قيام الولايات المتحدة بنشر جيشها رداً على استفزاز تمثل في قتل جماعي على أرضيها وخاصة عندما يترافق ذلك مع نشر معلومات مضللة؟ كيف يكون من الصعب

توقع أن يتم إعادة توجيه رد الفعل هذا لغزو بلد لم يؤدِّ أي دور في ذاك الهجوم، ولكن مستقبله السياسي يمثل أساس أمن ذلك الكيان؟

إن الحسابات الرياضية للاستغلال السياسي تستخدم «نظرية المراسلات correspondence theory » لنقل المفهوم الخاطئ للعلاقات. وعندما يتم شن حرب على الوعي المشترك، فإن قوة حشد الآخرين مع الفكرة تعدّ من أكثر الأسلحة فعالية. ولذا، وعلى سبيل المثال، تم إيفاد وزير الخارجية الأمريكي آنذاك كولن باول Colin Powell لمجلس الأمن التابع للأمم المتحدة في فبراير ٢٠٠٣م من أجل حشد الدعم وراء مزاعم استخباراتية كاذبة تقول: إن العراق يمتلك مختبرات متنقلة للأسلحة البيولوجية وهي جاهزة لقيام بغداد بنشرها كأسلحة دمار شامل.

ويمكن توظيف نظرية المراسلات من أجل التعزيز (كما في حال شهادة كولن باول) أو التشويه. لاحظ أيضاً دور الطابور الخامس عند حشد الدعم لعملية التلاعب عند اتخاذ قرار ما. إن الحوار السياسي حول شرعية غزو العراق في مارس ٢٠٠٣م قد تشكل بظهور كولن باول أمام الأمم المتحدة، وبالرغم من

أنه أقر فيما بعد أنه خُدع، إلا أن سياسة حشد الدعم قد أثبتت نجاحها في تحقيق هدفها السياسي.

ويمكن نشر سياسة الحشد على نطاق الأفراد أو على المستوى الجيوسياسي. وعندما لا تتفق الحقائق مع الخطاب المطروح وتشكل مخاطر للاستغلال السياسي، فإن مكتشف هذه الحقيقة يُوصف بكل السلوك والصفات المشينة. وكمثال على ذلك تهمة «معاداة السامية» التي تُطلق على كل من يحاول قول الحقيقة. أما على المستوى الجيوسياسي، فإن الولايات المتحدة فقدت مصداقيتها بتحالفها القوي مع إسرائيل. ولأن الولايات المتحدة قد ارتبطت بالسلوك الصهيوني، ولذا فنحن مذنبون بالتبعية.

الحسابات الفيزيائية للاستغلال السياسي

عند الحديث عن العناصر الفيزيائية في الاستغلال السياسي فإن التلاعب الإسرائيلي يُناسب أن يكون أمثلة جيدة في هذا السياق. فالاستخبارات الإسرائيلية وجهاز عملياتها الخارجية (الموساد Mossad) قد عرفت منذ وقت طويل بشنها الحروب عن طريق إتباع أساليب الخداع. لاحظ – على سبيل المثال-

استراتيجية التمويه التي تبناها رئيس الوزراء الإسرائيلي ديفيد بن غوريون في يونيو ١٩٦٣م. ورسالة الرئيس كنيدي لـ «بن غوريون» في ١٥ يونيو من عام ١٩٦٣م لم تكن تحمل بين طياتها إلا كل صداقة، فقد تم اختيار الكلمات بطريقة دبلوماسية. لكن بالمعايير القانونية، فهذه الكلمات تحمل مسؤولية جنائية. في تلك الرسالة أصر قائد الجيوش الأمريكية في الولايات المتحدة أن يقوم هذا الحليف بإثبات «بما لا يدع مجالاً للشك» أن الكيان الصهيوني لا يقوم بتطوير أسلحة نووية. وقبل يوم من إرسال هذه الرسالة إلى تل أبيب، استقال بن غوريون مبرراً ذلك بأسباب شخصية. أُعلنت الاستقالة قبل تسليم الرسالة، وادعى الكُتّاب المؤيدون لليهود أن الرسالة لم تصل إلى بن غوريون. لكن هذا التفسير غير المنطقي يتجاهل ما يعرف منذ زمن بعيد عن العمليات الإسرائيلية داخل الإدارات الأمريكية المتعاقبة، وعن قيام تل أبيب بصورة منتظمة برصد اتصالات البيت الأبيض. وبهذه الاستقالة، المخطط لها استراتيجياً، حُرم الرئيس كينيدي من حكومة إسرائيلية يمكن التفاوض معها على وضع نهاية مبكرة لسباق التسلح في المنطقة، ولعل موت كينيدي المفاجئ قد دفن هذا الأمل تماماً.

في يوليو ٢٠٠٨م قام رئيس الوزراء الإسرائيلي بنشر استراتيجية مماثلة، فعندما كادت «خارطة الطريق» أن تقود إلى تسوية سلمية، قدم استقالته، الأمر الذي جعل بنيامين نتنياهو يعود رئيساً للوزراء. وقام حزب الليكود بالتنكر لخارطة الطريق، وغير الخطة إلى مسار بعيد بدلاً عن الحوار مع الفلسطينيين للحرب على إيران، مما أدى إلى تجميد عملية السلام.

ومن الناحية العملية، فإن السياسة في الشرق الأوسط تتشكل من قبل أكثر العناصر المتطرفة في إسرائيل. وإذا ما أراد صانعو السياسة الأمريكية حكومة إسرائيلية يمكن التفاوض معها فيجب عليهم إرضاء الأطراف الأكثر تطرفاً في حكومة ائتلافية يقودها المتشددون.

هذه الأمثلة التي سقناها توضح المخاطر التي تُحدق بعملية الحوار بين أتباع الأديان عند قيام حزب واحد بتبني أجندة لا تتسم بالشفافية تدعمها ترسانة من الأساليب الاستغلالية التي ترعاها الدولة.

الهجوم على الذات:

هذه الأساليب المذكورة يمكن نشرها لتقويض الثقة بالنفس اللازمة للحكم الذاتي بما في ذلك ثقة المحكومين في

حكومتهم. فيلم قصة اغتيال الرئيس جون كينيدي المسمى (JFK) والذي أنتج عام ١٩٩١م – مثلاً - حصد ٨ جوائز. وقد أخذت قصة الفيلم مباشرة من الاتهامات المتعلقة بمؤامرة اغتيال كينيدي عام ١٩٦١م ، وهي الاتهامات التي سجلها جيم جاريسون Jim Garrison المدعي العام لمنطقة نيو أورليانز New Orleans. جاريسون حصل على تمويل من مجلس مدينة نيو أورليانز من أجل محاكمة المتهم كلي شو Clay Shaw ، الذي بُرِّئ بعد محاكمة طويلة. والشاهد هنا أن هذا الفيلم عمل على تأسيس خطاب لجماهير تصدق ما يُروى لها. فخلال عام من إطلاقه، أصبح أكثر من ٧٠٪ من الأمريكيين يعتقدون أن حكومتهم (وتشمل وكالة الاستخبارات المركزية) قد اغتالت رئيسهم الشاب الذي يتمتع بشعبية كبيرة. وحتى الآن فإن الكثير من الأمريكيين لا يثقون في حكومتهم، وذلك يعود في جزء كبير منه، إلى هذا الفيلم الذي كان منتجه، وهو الإسرائيلي أرنون ميلشان Arnon Milchan، يعمل في مجال شراء السلاح و يقوم بمهمته كعميل استخباراتي لتل أبيب. وفي الوقت الذي كان الأمريكيون يعملون على إنهاء الفصل العنصري في جنوب أفريقيا، استحوذ ميلشان على

وسائل إعلامية من أجل تحسين صورة حكومتها العنصرية البيضاء.

إن انعدام ثقة الأمريكيين في قيادتهم يستمد فعاليته من ضعف التماسك الاجتماعي، ويعد حسن النية في الحوار أمراً ضرورياً للأمن الوطني. وعملية انعدام الثقة هذه قد عززتها الاستخبارات التي أدخلتنا في الحرب في الشرق الأوسط بناءً على ادعاءات كاذبة تسعى لتنفيذ أجندة إسرائيل الكبرى. وتؤكد استطلاعات الرأي إلى أنه مع مرور كل عام فإن عدد الأمريكيين الذين يثقون في حكومتهم يقل بشكل واضح.

وفي أعقاب هجمات الحادي عشر من سبتمبر استفادت الولايات المتحدة من التعاطف العالمي معها. ففي الوقت الذي شاطرنا فيه الآخرون الحزن والأسى، تحوّلت الحواجز التي فرقت بيننا إلى مشاعر من القلق والشعور العاطفي الذي وحّد بيننا. لكن الصراع الأخير (الحرب العالمية على الإرهاب) الذي جاء نتيجة لتلك الهجمات مَثَّل عملية أخرى من عمليات التلاعب بالعقول دبرها أولئك الذين داوموا على مثل هذه الممارسات.

الخاتمة: الحوار وصراع الأضداد

يوفر الحوار وسيلة واعدة لأتباع مختلف الديانات، والأعراق، والجنسيات، والثقافات للوصول إلى فهم مشترك، وتجاوز أطروحة «الصدام» التي تؤطر الحوار الجيوسياسي في الوقت الراهن. بيد أن هذا الفهم يواجه سيلاً من التحديات بسبب الازدواجية المستمرة لأولئك الذين يمثلون الطابور الخامس. وبدلاً من مواجهة هذا الغدر بصورة مباشرة، فإن الحوار يمكن أن يخلق نظاماً موازياً من المشاركة لفضح هذا الخداع ومواجهته.

والطبيعة المتكررة لهذه الازدواجية تدل على الحاجة الملحة لتركيز الحوار العالمي على تساؤلٍ فحواه:

كيف استمر الاستغلال السياسي عبر الأزمنة والأمكنة والمسافات للتلاعب بالعقول؟

وبمثل إنتاج فيلم، فإن صراع الأضداد قد أفرز مجموعة من الأشرار الذين نجحوا في إشعال الحروب على مر الأجيال، في الوقت الذي أخفقوا فيه في حشد الموارد اللازمة لخلق الرخاء المشترك الضروري للأمن، والوئام الاجتماعي والسلم الدائم.

وإذا كانت مثل هذه الصراعات من إنتاج أولئك الماهرين في التلاعب بالأفكار والعواطف، كما تدل على ذلك الأنماط المتكررة، فإن مصدر الاستغلال يجب أن يكون واضحاً حتى تتم مساءلة المتورطين فيه ومحاكمتهم على ارتكابهم جرائم ضد الإنسانية.

وبالنظر إلى هذا الوضع، فإن الحوار بين أتباع الأديان يمكن أن ينجح في تمكين الإنسانية من تحرير نفسها من هذا العصر المظلم مع حلول عصر المعلوماتية. ويمكن كذلك تحقيق تقدم سريع في عملية تسريع الوصول إلى مجتمع المعرفة، إذا ما توفر حسن النية والحوار الحميم. ونظرًا لغياب هذا التوجه، فإن العلاقات الدولية تسير في الوقت الراهن نحو المزيد من الآلام والمعاناة وسفك الدماء.

أما الحوار دون التوصل إلى نتائج فلن يؤدي إلا إلى تعميق حالة اليأس التي يشعر بها الكثير من الناس، إذ تتسع دائرة الفقر في ظل مرور الاقتصاد العالمي بحالة من الانكماش، وتدخل الحكومات في الديون من أجل شن الحروب المبنية على مزاعم كاذبة، في الوقت الذي يتطلع فيه الناس في جميع أنحاء العالم إلى الأمن والسلام، ويحدوهم الأمل في أن تتحقق لهم وللأجيال القادمة حياة أفضل.

الخاتمة

أ.د. محمد بن سعود البشر*

من المقرر عندنا نحن المسلمين أن الاختلاف بين البشر سنة قررها الله تعالى، وهي ماضية إلى يوم القيامة. ومن لوازم هذا الاختلاف استحالة أن يكون الناس أمة واحدة، ولكنهم مختلفون لحكمة أرادها الخالق جل وعلا .

فقد علمنا القرآن الكريم هذه السنة، قال تعالى :

﴿وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾: (هود: ١١٨)

وقال :

﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُواْ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (يونس ١٩)

* رئيس الفريق العلمي لمشروع الفكر العالمي عن السعودية

وقـد بين الـقـرآن فـي غير موضع منه الحكمة مـن هذا الاختلاف، وأسبابه، ومآلاته.

وأهم ما في هذه السنة الالهية التي أخبرنا بها القرآن الكريم هي أن يتبين الحق من الباطل، ويتمحض الخير من الشر .

والدعوة للحوار بين أتباع الأديان التي تبنتها رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة وحظيت بتوجيه ودعم من خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز ورعاية لمناسباتها هي محاولة لالتقاء المؤثرين في حياة الإنسان على القيم النبيلة، وتقليل مظاهر الظلم والفساد والتحلل الأخلاقي الذي تعاني منه الإنسانية اليوم، وإحلال القيم الفاضلة في المجتمعات، كي يرتقي الإنسان، ويجمع بين سعادة الروح وسعادة الجسد.

هذه الغايات السامية للحوار بين أتباع الأديان لن تؤتي ثمارها وتحقق نتائجها التي يتطلع إليها العقلاء في كل أمة إلا إذا تجرد المحاورون من الاستغلال السياسي أو الثقافي تجاه هذه البادرة الحضارية، وأن تكون لديهم - قبل حواراتهم وبعدها- معلومات صادقة وموضوعية عن غيرهم من أطراف الحوار، وأن يأخذ العدل مكانه الطبيعي بين هذه الأطراف المتحاورة .

هـذا الإصـدار الفكري الـذي تنشره دار غيناء للدراسات والإعلام تناول موضوع الحوار بين أتباع الأديان تضمن رؤىً ثقافية مختلفة، ناقش فيه المشاركون ما ينبغي أن يكون عليه الحوار المرتجى، وشخصوا أهم المشكلات التي تواجهه بأسلوب علمي وموضوعي نرجو أن يكون إسهاماً فاعلاً في مسيرة الحوار الذي نأمله، يحدونا في ذلك الالتقاء على الحق الذي ننشده ونبحث عنه ، وهو الحق الذي نعتقد جازمين أن البشرية إذا توصلت إليه وعرفته حق المعرفة ستسعد في حياتها.